خالد بن الوليد

أعظم قادة التاريخ

تأليف

صلاح محمد عبد الحميد

الناشر

مؤسسة دار الفرسان

العنوان : 51ش ابراهيم خليل – التروللى – المطرية

الكتاب : خالد بن الوليد

الكاتب : صلاح محمد عبد الحميد

الطبعة : الأولى

إخراج فنى : رانيا محمد عبد الحميد

رقم الإيداع : / 8638/ 2007

الترقيم الدولى :I.S.B.N.977-6169-17-1

□

إهداء

إلى أمى الحبيبة بعد تقبيل يديها ..

إلى أبى الغالى ..

إلى زوجتى أم زياد التى أعطتنى من وقتها عن طيب خاطر كى يخرج هذا الكتاب إلى النور ..

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحد لا شريك له رب السماوات والأرض وما بينهما ورب العرش العظيم ، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله المبشر النذير والسراج المنير – صلى الله عليه وسلم – وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . أما بعد ؛

ليست سيرة أبي بكر ، ولا سيرة عمر ، وليست سيرة سعد وخالد ، وأولئك الأبطال العظماء – رضي الله عنهم – إلا فصولاً متشابهة ، أو نسخا مكررة ، من سيرة المعجزة الكبرى في تاريخ البشر ، سيرة الانبعاث الأعظم لقوى الخير في الإنسان ، سيرة الفتح الذي حير نوابغ القواد ، وأعلام المؤرخين .

سيرة الصحارى المتسعرات المقفرات ، التي لبثت دهورا لا تسقى بغير الدم ، ولا تنبت غير الأحقاد والثارات ، فلما مرت يد محمد – صلى الله عليه وسلم – على هذه الصحارى ، أنبتت رمالها الدوحة الباسقة التي ظللت الشام ذات الأعناب ، والعراق ذات النخيل ، ومصر ذات النيل ، والقسطنطينية ذات الأبراج والقباب ، وما شرق من الأرض وما غرب ، دوحة العدل والحضارة والخير.

سيرة (الجندي) الذي كان منزويا وراء الرمال ، نائما في وهج الشمس، لا يعرف المجد إلا في الحب والحرب ، في كأس أو قصيدة ، أو غزوة سلب ونهب ، فلما هذبته مدرسة محمد – صلى الله عليه وسلم – صيرته الجندي الأكمل في تاريخ الحروب ، لم يعرف التاريخ جنديا أخلص منه لفكرته ، ولا أقدم منه إلى غايته ، ولا يعرف نفسا أطهر من نفسه ، ولا سيفا أمضى من سيفه ، الجندي الذي مشى في كل وادٍ ، وصعد كل جبل ، خاض البحار ، وعبر الأنهار ، وجاب الأرض كلها ، حتى نصب للإسلام على كل ربو ة راية ، وأبقى للإسلام في كل أرض وطنا لا تقوى على استلابه من أهله مردة الشياطين.

المدرسة التي أخرجت هؤلاء القواد الذين دانوا التاريخ ، وكانوا أعاجيب في الذكاء والمضاء والعبقرية ، وما تعلموا في كلية عسكرية ، ولكنهم تعلمو في هذه المدرسة فخرجوا منها بـ (شهادة) الدنيا التي فتحوها ، والحضارات التي أقاموها ، والمآثر التي تركوها ، أعظم القواد وأجل الأبطال الذين ساروا في موكب النبوغ العسكري العربي إلى الخلود ، وكان أعظمهم بلا جدال ، بل كان أعظم قائد في التاريخ القديم كله بشهادة نابليون ، وغيره ، وشهادة سيرته وأخباره وشهادة من سماه الرسول صلى الله عليه وسلم (سيف الله المسلول) وحسبكم بها وحدها شهادة : خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه.

المؤلف

صلاح محمد عبد الحميد

خالد بن الوليد

لقد شرف الله منزلة الجهاد والمجاهدين، وجعل الجهاد ذروة سنام الإسلام وعز هذه الأمة ، وإن من خير من ترسم خطاه ذلك البطل الأشم الذي كسر شوكة الأكاسرة وقصم ظهور القياصرة .. إنه سيف الله المسلول على أعدائه خالد بن الوليد .

مع أئمة الهدى ومصابيح الدجى، هذه السطور التى نقدمها لأبناء الصحوة الإسلامية خاصة، وللمسلمين عامة، للعبرة والعظة من ناحية ، ولتقديم القدوة الصالحة الطيبة لتربية الأجيال عليها من ناحية أخرى ، لا سيما بعد فترة التغريب الطويلة التي مسخت الهوية، وشوهت الفكر والتاريخ، وزعزعت الانتماء .

إنه : أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة "، ينتهي نسبه إلى "مرة بن كعب بن لؤي" الجد السابع للنبي (صلى الله عليه وسلم) و"أبي بكر الصديق" رضي الله عنه.

قائد المجاهدين، وسيف من سيوف رب العالمين، وأستاذ فن الحروب والميادين، الفاتك بالمسلمين يوم أحد ، والفاتك بأعداء الإسلام بقية الأيام، إنه فارس الإسلام والمسلمين، وسيف من سيوف رب العالمين، وترياق وساوس الشياطين من الكفار والمنافقين، والبطل القوي العنيد، والفارس القوي الرشيد.

خالد بن الوليد رضي الله عنه علم من أعلام الجهاد في سبيل الله، وفن القيادة وإدارة الحروب، أحب المسلمون سيفه، وخافه أعداء الإسلام، وأقبل قادة الدنيا في كل زمان ومكان إلى عصر نابليون ينهلون من مورد خالد الخالد في فن القيادة، وإدارة الحروب، وقواعد القتال.

خالد بن الوليد رضي الله عنه الذي تحول في عالم الحرب ودنيا الميادين إلى أسطورة، وما زالت الأبحاث والدراسات إلى عصرنا هذا تنهل من مورد قيادة خالد ، وفن إدارته للحروب والقتال، فمن هو خالد ؟ وما الذي نعرفه نحن المسلمين عن خالد ؟ والله لا نعرف عنه إلا القليل، في الوقت الذي نجد فيه كثيراً من المسلمون يعرفون الكثير والكثير عن نابليون، ولينين واستالين، وبسمر وغيرهم وغيرهم من هؤلاء الأقزام. فمن هو خالد بن الوليد ؟

نشأة خالد بن الوليد رضي الله عنه

نشأ خالد بن الوليد في بيئة غنية ثرية مترفة ؛ فأبوه هو: الوليد بن المغيرة الذي كان أغنى الناس في زمانه، وكان من كبريائه في جوده أنه كان ينهى عن أن توقد نار في منى غير ناره لإطعام الحجيج، الوليد بن المغيرة الذي تحدث الله عنه وعن ثرائه وغناه في سورة المدثر فقال :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالاً مَّمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴾ [1]

ذلكم هو الوليد بن المغيرة ، وتلك هي البيئة التي نشأ فيها خالد بن الوليد رضي الله عنه. ومع هذا الغنى، وفى هذا الثراء نشأ خالد بن الوليد نشأةً خشنة، مروِّض نفسه على الغلظة، والقساوة ، والخشونة ، وحياة البداوة، لماذا ؟ لأنه نشأ من صغره يحب الفروسية والقتال .

[1] المدثر 11 : 16

ترك خالد هذا الثراء والمال والغنى ، إلا أنه ورث الكره الشديد للإسلام من أبيه، فهو قائد الميمنة، وصاحب الحملة الشرسة في غزوة أحد الذى شتت شمل المسلمين، وبعثر صفوفهم. قائد الخيل والفرسان فى غزوة الخندق مع المشركين ضد المسلمين .

الوليد بن المغيرة

كان الوليد بن المغيرة من بني مخزوم وهو عم "أبو جهل" شديد الثراء. وكان له عشرة أولاد كان يتباهي بهم، ومنهم خالد بن الوليد، والوليد بن الوليد، وكان لكثرة ماله الذي يفتخر به يقرض الناس بالربا، وقد أهله ذلك لأن يكون أحد المرموقين في مكة وكان من الذين تستمع لهم قريش في دار الندوة.

وكان هذا الرجل مع كثرة ماله بخيلا ضنينا بماله علي الفقراء والمساكين، وإن انفق في موسم الحج، فذلك كنوع من الفخر والتباهي.ومع كثرة ما له وبخله، ومع أنه كان واحدا من زعماء مكة فقد آثر ألا يشرب الخمر؛ لأن الخمر تذهب بالعقل، وتجعل الانسان في موقف يزدريه فيه العقلاء.

كما أن الرواة يروون أنه عندما أصاب السيل الجارف قبيل الرسالة المحمدية بيت الله الحرام، وتصدعت بعض أركانه، تحمس المغيرة لاعادة بناء الكعبة، واجتمع في دار الندوة مع أهل مكة من أجل هذا الغرض، وعندما علم أن هناك سفينة رومانية قد جنحت بعد أن تحطمت عند _ الشعبية _ وهو المكان الذي اقيمت عليه مدينة جدة الحالية، وكانت مرفأ للسفن، ذهب الي هناك واشتري خشبها، وكان علي متن هذه السفينة رجلاً ماهرا فى فن البناء اسمه "باقوم" فطلب منه أن يقوم بمهمة بناء الكعبة.

وعندما خشي الناس من هدم الكعبة، تقدم هو وبدأ الهدم وتابعه الناس. واتفق الناس علي أن يكون بناء الكعبة من مال حلال. ويقول بعض الرواة انه كان يملك ألف ألف دينار.

وعندما سمع الوليد بالرسالة المحمدية أخذته العزة بالإثم وتساءل لماذا لم تكن الدعوة من نصيبه وهو أكثر غني وجاها من محمد.. هذا الموقف الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله:

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [1]

وكان من الطبيعي أن يدفعه حقده وغيرته إلي مهاجمة الرسالة والرسول ﷺ . ولكنه وجد كما وجدت قريش أن العذاب لم يحل بين النبي عليه الصلاة والسلام واصراره علي تبليغ الرسالة ففكروا في طريقة أخري لعلها تثني النبي عن الحديث عن الدعوة.

[1] الزخرف 31 : 32

وقررت قريش أن ترسل اليه أحد ساداتها لمفاوضته واختارت عتبة بن ربيعة الذي ذهب الي الرسول وكان الرسول ساعتها بجوار الكعبة.

قال له عتبة بن ربيعة : يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من خيارنا حسبا ونسبا وأنك قد أ تيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم وسفهت أحلامهم، وعِبت آلهتهم ودينهم، وكفرت من مضي من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها.فقال النبي ﷺ : قل يا أبا الوليد فقال عتبة : يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتي تكون أكثرنا مالا.. وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتي لا نقطع أمرا دونك! وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا.. وإن كان الذي يأتيك رأيا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتي نشفيك منه، فإنه ربما غلب التابع علي الرجل حتي يداوي'.

فقال النبي ﷺ :

_ أفرغت يا أبا الوليد؟

_ نعم .

_ فاسمع مني.. وأخذ الرسول ﷺ يقرأ عليه أول سورة 'فصلت' إلي قوله تعالي:

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴾ [1] .

وما كاد يصل الرسول قراءته الي هذا الموضع حتي ارتعدت أوصال عتبة، ووضع يده علي فم الرسول حتي لا يواصل القراءة، وشعر بتضاؤله أمام آيات الله البنيات.. وأسرع متجها الي قومه، وعندما رآه الناس علي البعد قالوا:

_ والله لقد رجع 'عتبة' إلينا بوجه غير الذي ذهب به! وسألوه عما صنع فقال لهم:

_ والله لقد سمعت منه قولا ما سمعت مثله قط.. والله ما هو بشاعر، ولا كاهن ولا ساحر.

وطلب منهم أن يخلوا بين محمد ودعوته فما كان منهم إلا أن قالوا له: لقد سحرك محمد يا عتبة

وهنا نهض الوليد بن المغيرة ليذهب الي الرسول ويقنعه بالعدول عن الدعوة الي الاسلام.

---

[1] فصلت 13

واستمع الرسول الي حديثه الذي يتسم بالغباء، ثم تلا عليه بعض آيات الذكر الحكيم.. فما كان من الوليد إلا أن ذهب إلي قومه وقال لهم:_ والله لقد سمعت من محمد كلاما ماهو من كلام الإنس ولا من كلام الجن.وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وانه يعلو ولا يعلي عليه ".

وسمعت قريش هذا الكلام من الوليد فانتابها حزن شديد لو أسلم هذا الرجل فسوف يسلم بإسلامه عدد كبير من الناس. وإذا كان محمد قد استطاع أن يقنع هذا الرجل، فقدرته علي اقناع غيره سهلة ويسيرة.وفكرت قريش ماذا تفعل أمام افتنان الناس حتي أعدائه ببلاغة الرسول وقدرته علي الاقناع، وعدم التساهل في أمر دينه.

هنا وقف أبو جهل وأعلن أنه سوف يذهب إلي عمه الوليد، وأنه سيقنعه بعدم تصديق محمد، وأن يعلن أمام الناس كذبه!!

وذهب أبو جهل إلي بيت عمه الوليد، وأخذ يحدثه عن بني هاشم الذين يريدون أن يسودوا العرب عن طريق دعوة محمد ﷺ! ثم أخذ يستثير فيه عوامل الغضب قائلا له : إن قريشا تتحدث علي انهم سوف يعطون له صدقة ويجمعون له المال وسأله المغيرة كيف وأنا أكثركم مالا! فقال له أبو جهل: يتحدثون انك انما تدخل علي ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه"!! وجن جنون المغيرة وتجمع فيه كل لؤم الجاهلية وغباؤها.ومن هنا نزل قوله تعالي :

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ۝٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴾ [1]

[1] المدثر 17 : 27

وهذه الآيات التي نزلت في الوليد يفسرها الامام ابن كثير بقوله:وهذا المذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزمي أحد رؤساء قريش لعنه الله.

وتري في صفوة التفاسير للصابوني وهو يفسر هذه الآيات من سورة القلم:

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ [1]

بعد أن شرح مفردات هذه الآيات قال : قال المفسرون نزلت في الوليد بن المغيرة ، فقد كان دعيا في قريش وليس منهم ، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة _ أي تبناه ونسبه لنفسه بعد أن كان لا يعرف له أب.

---

[1] القلم8 : 16

قال ابن عباس: لا نعلم أحدا وصفه الله بهذه العيوب غير هذا، فألحق به عارا لا يفارقه أبدا، إنما ذم بذلك لأن النطفة إ ذا خبثت خبث الولد، وروي أن الآية لما نزلت جاء الوليد إلي أمه فقال لها:

_ إن محمدا وصفني بتسع صفات، كلها ظاهرة في أعرفها، غير التاسع منها يريد أنه "زنيم" فإن لم تصدقيني ضربت عنقك بالسيف!فقالت له:

_ إن آباك كان عنيناً _ أي لا يستطيع معاشرة النساء _ فخفت علي المال فمكنت راعيا من نفسي فأنت ابن ذلك الراعي ! فلم يعرف أنه ابن زنا حتي نزلت الآية ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ أي لأنه كان ذا مال وبنين قال في القرآن ما قال، وزعم أنه أساطير الأولين وكان ينبغي أن يقابل النعمة بالشكر لا بالجحود والتكذيب ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي إذا قرئت آيات القرآن علي ذلك الفاجر قال مستهزئا ساخرا: أنها خرافات وأباطيل المتقدمين اختلقها محمد ونسبها إلي الله، قال الله تعالي ردا عليه متوعدا له بالعذاب : ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾

أي سنجعل له علامة علي أنفه بالختم عليه يعرف بها إلي موته، وكني بالخرطوم علي أنفه علي سبيل الاستخفاف به، لأن الخرطوم للفيل والخنزير، فإذا شبه أنف الإنسان به كان ذلك غاية في الإذلال والإهانة كما يعبر عن شفاه الناس بالمشافر، وعلي أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر..

قال ابن عباس: سنختم أنفه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقية علي أنفه ما عاش، وقد خطم يوم بدر بالسيف .

قال الإمام الفخر: لما كان الوجه اكرم موضع في الجسد، والانف أكرم موضع من الوجه لارتفاعه عليه، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الأنف، وقالوا في الذليل رغم أنفه، فعبر بالوسم علي الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة، لأن السمة علي الوجه شين فكيف علي أكرم وضع في الوجه.

ولتطاول الوليد بن المغيرة علي القرآن الكريم واتهامه بأنه من أساطير الأولين، كان عليه سخط الله فقد عرف الحق، ولكنه أدار ظهره له.. فكان مصيره جهنم وبئس القرار.

نسب خالد

هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة وبه يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكنيته أبو سليمان وأبا الوليد .

أما أمه فهي لبابة الصغرى بنت الحارث من بني هلال بن عامر وهي أخت ميمونة أم المؤمنين وأخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب وأم أولاده الفضل وقثم وعبد الله وعبد الرحمن ، وأخت أسماء بنت عميس الخثعمية لأمها تزوجت أسماء جعفر بن أبي طالب فولدت له عبد الله ومحمداً ، فلما استشهد في غزوة مؤته تزوجها أبو بكر فولدت له محمداً فلما مات عنها تزوجها علي ابن أبي طالب فولدت له يحيى . فمن هنا تظهر علاقة خالد بالهاشميين ولكن لم يظهر لها أثر محسوس .

أسرة خالد وما لها في الجاهلية من الحقوق :

يدلك على مكانها أن قريشاً لما طلبت تخليص العير التي من أجلها نشبت حروب بدر الكبرى جاء الأخنس بن شريق قائد بني زهرة إلى أبي جهل ابن هشام بن المغيرة ولما اختلى به سأله قائلاً أترى محمداً يكذب ؟ فقال أبو جهل : ماكذب قط وكنا نسميه الأمين ولكن إذا كان في بني هاشم السقاية والرفادة والمشورة ثم تكون فيهم النبوة فأي شيء لبني مخزوم ؟

فمن هذا يتبين أن بني مخزوم يرون أنفسهم في درجة بني هاشم فإن أبا جهل ابن عم خالد، ويقول أمية بن خلف لسعد بن معاذ سيد الأوس حينما نزل عليه وتناقش مع أبي جهل ورفع صوته عليه إن منعتني هنا لأمنعنك ما هو أعظم من ذلك من طريقك على المدينة : لاترفع صوتك على أبي الحكم . أبي جهل . فإنه سيد أهل الوادي كما في السيرة الحلبية .

مع هذا فكان الوليد هو المقدم على بني مخزوم وكان من عظماء قريش وكان في سعة من العيش ويطعم الناس أيام منى وينهي أن توقد نار لاجل طعام غير ناره وكان ينفق على الحاج نفقة واسعة ويقال له ريحانة قريش، قال ابن الأثير : وهو العدل لأنه كان عدل جميع قريش في كسوة الكعبة فتكسوها قريش عاماً وهو وحده يكسوها عاماً ولكن شاء الله أن يموت ضالاً ويكون من المستهزئين الذين نزل فيهم قول الله تعالى :

﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾[1]

فهلك بسهم داس عليه فجرحه فمات والى ذلك يشير البوصيري بقوله:

فأصاب الوليد خدشة سهم   قصرت عنها الحية الرقطاء

وكان موته بعد الهجرة بثلاثة أشهر عن خمس وتسعين سنة ودفن في الحجون بمكة ، كذا في ابن الأثير والحلبية . وسبب امتناعه من الأسلام كما ذكره الإمام البغوي في تفسيره أن النبي ﷺ في المسجد قرأ :

[1] الحجر 95

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[1]

وكان الوليد يسمع قرأته ففطن له رسول الله ﷺ وأعاد الآية فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه فقال : والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الأنس ولامن كلام الجن أن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وأنه يعلو ولا يعلى عليه .

ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش صبأ والله الوليد ، وهو ريحانة قريش والله لتصبأن قريش كلهم فقال أبو جهل أنا أكفيكموه فانطلق فقعد إلى جنب الوليد حزيناً فقال له الوليد مالي أراك حزيناً ياابن أخي ؟

فقال : وما يمنعني أن أحزن ؟ وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ويزعمو ن أنك زينت كلام محمد وإنك تدخل على ابن أبي كبشة وابن قحافة لتنال من فضل طعامهم فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أني من أكثرها مالاً وولداً ؟ وهل شبع محمد وأصحابه ليكون لهم فضل ؟ ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه .

---

[1] غافر 1 : 3

فقال لهم : تـزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتوه يـحنق قـط ؟ قـالوا اللهم لا، قـال : تــزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهن قط ؟ قالوا اللهم لا، قـال : تــزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ قالوا لا ، فقالت قريش للوليد فما هو ؟ فتفكر في نفسه ثم نظر وعبس فقال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر فذلك قول الله تعالى في سورة المدثر :

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴾ [1]

من هذه القصة تعلم مكانة الوليد في قومه فلقد خشوا أن يكون اسلامه سبباً لاسلام جميع قريش وكادت فطرته تسوقه إلى الهداية لولا كفار قريش فأنهم استعانوا بالافتراء والتزوير على لسان من لايتهمه وهو ابن أخيه أبو جهل هشام فاثار حفيظته وهيج عواطفه وحرك عصبيته عندما زعم أنه يأكل فضلة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو معروف بالكرم وإن قريشاً تريد جمع اعانة له وهو من أغناهم فاضطر لمناقشتهم كي يبرر كلامه السابق ولكنه اخترع وصفه بالساحر بعد ما نزهه عن السحر لتكف قريش عن تشويه سمعته.

---

[1] المدثر 17 : 19

أما أم خالد لبابة الصغرى فماتت مسلمة بعد وفاة ابنها خالد كما حققه ابن حجر في الأصابة.

ولادة خالــد:

هي في مكة ولكنها لم تكن معروفة بالضبط وإنما أورد ابن عساكر في تاريخه أنه في سن عمر بن الخطاب واستدل بحادثة جعلها سبب العداوة بينهما هي أن عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد تصارعا وهما غلامان وكان خالد بن الوليد ابن خال عمر فكسر خالد ساق عمر وجبرت وعليه فتكون سن خالد حين الدعوة الأسلامية سبعاً وعشرين سنة.

أخوة خالد :

عمارة بن الوليد وقد ذهب مع عمرو بن العاص بهدايا إلى النجاشي ملك الحبشة ليردوا المهاجرين جعفر ابن أبي طالب وأصحابه فمات هناك كافراً قبل الهجرة بيسير .

الوليد ابن الوليد : أسلم بعد ما فدى ببدر حبسوه في مكة فنجاه الله تعالى وصار يسرق أسرى المسلمين من كفار مكة ثم كان سبب إسلام خالد بعد عمرة القضاء ومات في " براعة " على ميل من المدينة .

هشام بن الوليد قال : في الاستيعاب من المؤلفة قلوبهم أورده ابن حجر في كتاب الإصابة مستشهداً بأبيات أنشد دها المرزباني خطاباً لعثمان بن عفان في خلافته منها :

لساني طويل فاحترس من شدائه عليك وسيفي من لسان أطول

وكانت أسرة " خالد " ذات منزلة متميزة في بني مخزوم؛ فعمه "أبو أمية بن المغيرة" كان معروفًا بالحكمة والفضل، وكان مشهورا بالجود والكرم، وهو الذي أشار على قبائل قريش بتحكيم أول من يدخل عليهم حينما اختلفوا على وضع الحجر الأسود وكادوا يتقاتلون، وقد مات قبل الإسلام.

وعمه "هشام بن المغيرة" كان من سادات قريش وأشرافها، وهو الذي قاد بني مخزوم في "حرب الفجار".

وعمه الفاكه بن المغيرة الذى قتلته بنى جذيمة فى الجاهلية هو وعوف بن عبد الرحمن بن عوف عم الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف.

خالد ودوره فى غزوة أحد

التحريض على غزو الرسول ﷺ :

لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب ، ورجع فلهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، في رجال من قريش ، ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ، ففعلوا .

اجتماع قريش للحرب :

فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ حين فعل ذلك أبو سفيان ابن حرب وأصحاب العير بأحابيشها ، ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة . وكان عمرو بن عبد الله الجمحي قد من عليه رسول الله ﷺ يوم بدر وكان فقيرا ذا عيال وحاجة وكان في الأسرى ، فقال : إني فقير ذو عيال وحاجة قد عرفتها فامنن علي ﷺ فمن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له صفوان بن أمية : يا أبا عزة إنك امرؤ شاعر ، فأعنا بلسانك ، فاخرج معنا ; فقال إن محمدا قد من علي فلا أريد أن أظاهر عليه قال (بلى) فأعنا بنفسك ، فلك الله علي إن رجعت أن أغنيك ، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي ، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر . فخرج في تهامة ، ويدعو بني كنانة ويقول :

أيها بني عبد مناة الرزام أنتم حماة وأبوكم حام

لا تعدوني نصركم بعد العام لا تسلموني لا يحل إسلام

وخرج مسافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة بن جمح إلى بني مالك بن كنانة ، يحرضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ فقال :

يا مال مال الحسب المـقدم أنشد ذا القربى وذا التذمم

من كان ذا رحم ومن لم يرحم الحلف وسط البلد المحرم

عند حطيم الكعبة المعظم

ودعا جبير بن مطعم غلاما له حبشيا يقال له وحشي ، يقذف بحربة له قذف الحبشة ، قلما يخطئ بها ، فقال له أخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة بن عدي ، فأنت عتيق .

رؤيا رسول الله ﷺ :

فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون قد نزلوا حيث نزلوا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين : " إني قد رأيت والله خيرا ، رأيت بقرا ، ورأيت في ذباب سيفي ثلما ، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة " .

قال ابن هشام : وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " رأيت بقرا لي تذبح ؟ قال : فأما البقر فهي ناس من أصحابي يقتلون وأما الثلم الذي رأيت في ذباب سيفي ، فهو رجل من أهل بيتي يقتل " .

مشاورة الرسول القوم في الخروج أو البقاء :

قال ابن إسحاق :" فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها " .

وكان رأي عبد الله بن أبـ ي ابن سلول مع رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى رأيه في ذلك وألا يخرج إليهم وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج فقال رجال من المسلمين ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيره ممن كان فاته بدر" يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا ؟ فقال عبد الله بن أبي ابن سلول يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا .

فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم حتى دخل رسول الله ﷺ بيته فلبس لأمته وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة . وقد مات في ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له مالك بن عمرو ، أحد بني النجار فصلى عليه رسول ﷺ ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا : استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لنا ذلك .

فلما خرج عليهم رسول الله ﷺ قالوا : يا رسول الله استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل" .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف من أصحابه . قال ابن هشام : واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس .

انخذال المنافقين :

قال ابن إسحاق : حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد ، انخذل عنه عبد الله بن أبي ابن سلول بثلث الناس وقال أطاعهم وعصاني ، ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول : يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى أنه يكون قتال . قال فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال : " أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه " .

قال ابن هشام : وذكر غير زياد عن محمد بن إسحاق عن الزهري: أن الأنصار يوم أحد ، قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله : ألا نستعين بحلفائنا من يهود ؟ فقال لا حاجة لنا فيهم .

حادثة تفاءل بها الرسول :

قال زياد حدثني محمد بن إسحاق قال ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سلك في حرة بني حارثة ، فذب فرس بذنبه فأصاب كلاب سيف فاستله .

قال ابن هشام : ويقال كلاب سيف .

قال ابن إسحاق : فقال رسول الله ﷺ وكان يحب الفأل ولا يعتاف لصاحب السيف شم سيفك ، فإني أرى السيوف ستسل اليوم .

نزول الرسول بالشعب وتعبيته للقتال :

قال ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشعب من أحد ، في عدوة الوادي إلى الجبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد ، وقال : " لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال " .

وقد سرحت قريش الظهر والكراع في زروع كانت بالصمغة من قناة للمسلمين فقال رجل من الأنصار حين نهى رسول الله ﷺ عن القتال أترعى زروع بني قيلة ولما نضارب وتعبى رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبع مئة رجل وأمر على الرماة عبد الله بن جبير ، أخا بني عمرو بن عوف وهو معلم يومئذ بثياب بيض والرماة خمسون رجلا ، فقال : " انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك " .

وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، أخي بني عبد الدار .

من أجازهم الرسول وهم في الخامسة عشرة :

قال ابن هشام : وأجاز رسول الله ﷺ يومئذ سمرة بن جندب الفزاري ورافع بن خديج ، أخا بني حارثة وهما ابنا خمس عشرة سنة وكان قد ردهما ، فقيل له : " يا رسول الله إن رافعا رام ، فأجازه فلما أجاز رافعا ، قيل له يا رسول الله فإن سمرة يصرع رافعا ، فأجازه " .

ورد رسول الله ﷺ أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت ، أحد بني مالك بن النجار والبراء بن عازب ، أحد بني حارثة ، وعمرو بن حزم ، أحد بني مالك بن النجار وأسيد بن ظهير ، أحد بني حارثة ثم أجازهم يوم الخندق ، وهم أبناء خمس عشرة سنة .

قال ابن إسحاق : وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل ومعهم مئتا فرس قد جنبوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل .

أمر أبي دجانة :

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة ، أخو بني ساعدة فقال وما حقه يا رسول الله ؟ قال أن تضرب به العدو حتى ينحني قال أنا آخذه يا رسول الله بحقه فأعطاه إياه " .

وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب إذا كانت وكان إذا أعلم بعصابة له حمراء ، فاعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه وجعل يتبختر بين الصفين .

قال ابن إسحاق : فحدثني جعفر بن عبد الله بن أسلم ، مولى عمر بن الخطاب ، عن رجل من الأنصار من بني سلمة قال قال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دجانة يتبختر إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن.

أسلوب أبي سفيان في تحريض قريش :

قال ابن إسحاق : وقد قال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بني عبد الدار يحرضهم بذلك على القتال يا بني عبد الدار إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه فهموا به وتواعدوه وقالوا : نحن نسلم إليك لواءنا ، ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع وذلك أراد أبو سفيان .

تحريض هند والنسوة معها :

فلما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها ، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويحرضنهم فقالت هند فيما تقول :

ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار

ضربا بكل بتار

وتقول :

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

شعار المسلمين :

وكان شعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد : أمت أمت فيما قال ابن هشام .

أحداث المعركة :

وأدركهم المسلمون في مكان يقال له الشيخان فباتوا ليلتهم وقبل طلوع الفجر بقليل والجيش الإسلامي قد قرب من عدوه حتى أضحوا يرونه ويراهم، تمرد عبد الله بن أبي المنافق، فانسحب بنحو ثلث العسكر ثلاثمائة مقاتل قائلاً: "ما ندري علام نقتل أنفسنا ".

وكاد أن يحدث الاضطراب في الجيش الإسلامي بعد انسحاب المنافق ومن معه، فليس يسيرا على النفوس الضعيفة أن يخسر الجيش ثلثه، وهم قاب قوسين أو أدنى من قتال العدو، وتبعهم عبد الله بن حرام والد جابر بن عبد الله وهو يقول: "تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا"، قالوا: "لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع" فقال عبد الله: أبعدكم الله، أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [1] .

وسار النبي ﷺ بمن بقي معه من الجيش حتى نزل الشعب من جبل أحد، فعسكر بجيشه مستقبلاً المدينة وجاعلاً ظهره إلى هضاب جبل أحد، وهناك عبأ جيشه وهيأهم صفوفًا للقتال، واختار فصيلة من الرماة الماهرين قوامهما خمسون مقاتلاً وجعل قائدهم عبد الله بن جبير بن النعمان وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الجنوبية من وادي مناة، وهو ما يعرف اليوم بجبل الرماة. وقال لهم كما روى البخاري : " إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم " .

---

[1] آل عمران 167

ولما تقارب الجمعان، كان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري، وكان من أشجع فرسان قريش، خرج وهو راكب على جمل، يدعو إلى المبارزة، فأحجم الناس لفرط شجاعته، ولكن تقدم إليه الزبير، ولم يمهله بل وثب إليه وثبة الليث، حتى صار معه على جمله، ثم اقتحم به الأرض، فألقاه عنه وذبحه بسيفه، فكبر النبي ﷺ وكبر المسلمون، وقال: إن لكل نبي حواريا، وحواريي الزبير.

ثم اندلعت نيران المعركة، واشتد القتال، وتعاقب على حمل لواء المشركين عشرة من بني عبد الدار كلما قُتل أحدهم حمل الراية آخر، إلى أن سقطت الراية على الأرض، لم يبق أحد يحملها، وانطلق المسلمون في كل نقاط المعركة كالأسود، وهم يرددون شعارهم (أمتي أمتي). وعصب أبو دجانة عصابته الحمراء، وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي   ونحن بالسفح لدى النخيل

أن لا أقوم الدهر في الكيول   أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يلـقى أحداً إلا قتله، وكان في المشركين رجل شديد لا يدع جريحاً للمسلمين إلا قتله، فدنا منه أبو دجانة فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته، فضربه أبو دجانة فقتله، قال وحشي قاتل حمزة، كنت غلاما لجبير بن مطعم فجعل عتقي في قتلي حمزة بن عبد المطلب، فجعلت أنظر إليه وأتبصره حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق، يهد الناس هداً، فوالله إني لأتهيأ له أريده فأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو مني، حتى إذا دنى، هززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه فوقعت في أحشائه حتى خرجت من بين رجليه.

وهكذا دارت رحى الحر ب، وظل الجيش الإسلامي مسيطرا على الموقف كله، وفر معسكر المشركين، قال البراء بن عازب كما عند البخاري، فلما لقيناهم هربوا، وتبع المسلمون المشركين، يضعون فيهم السلاح، وينتبهون الغنائم، وبينما كان الحال كذلك، كان الرماة فوق الجبل يرقبون الموقف، ويرون نصر الله يتنزل، غلبت آثاره من حب الدنيا، فقال بعضهم لبعض؛ الغنيمة، الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون، فقال لهم قائدهم عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ فقالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة، فنزل أربعون منهم والتحقوا بسواد الجيش، ولم يبق على جبل الرماة إلا ابن جبير وتسعة معه .

دور خالدبن الوليد في المعركة :

انتهز خالد بن الوليد ترك الرماة أماكنهم ، فاستدار بسرعة خاطفة حتى وصل إلى مؤخرة الجيش الإسلامي، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه، ثم انقض على المسلمين من خلفهم وصاح فرسانه فعاد المنهزمون من جيش المسلمين ورفعت امرأة يقال لها عمرة بنت علقمة الحارثية لواء المشركين فالتفوا حوله، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف.

وكان النبيﷺفي تسعة نفر من أصحابه يرقب المسلمين ومطاردتهم المشركين إذ بوغت من الخلف بفرسان خالد بن الوليد فكان أمامه طريقان إما أن ينجو بنفسه ومن معه بسرعة وإما أن يخاطر بنفسه فيدعو أصحابه ليجمعهم حوله فنادى بأعلى صوته: عباد الله ، فخلص إليه المشركون قبل أن يصل إليه المسلمون، وتزعزع الناس في معسكر المسلمين فلاذ بعضهم بالفرار إلى المدينة وصعد بعضهم جبل أحد، ثم صاح صائح: إن محمداً قد قتل، فانهارت روح المؤمنين، أو كادت تنهار، فتوقف من توقف عن القتال، وألقى بعضهم السلاح،

مر بهؤلاء أنس بن النضر فقال : ما تنتظرون ، فقالوا : قتل رسول الله قال: ما تصنعون بالحياة بعده، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني المسلمين، وأبرأ إليك من صنع هؤلاء يعني المشركين ، ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ فقال: إلى أين يا أبا عمر، فقال أنس: واهاً لريح الجنة يا سعد، إني لأجده دون أحد، ثم مضى فقاتل حتى قتل فما عرفه أحدٌ إلا أخته من بنانه، وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف ورمية بسهم .

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه، فقال: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل قد بلغ، فقاتلوا عن دينكم.

وبمثل هذه المواقف عادت الروح إلى قلوب المؤمنين، وطوق المشركون رسول الله ومن معه وكانوا تسعة فقتل سبعة منهم بعد قتال عنيف. ولم يبق معه غير سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبد الله.

فطمعوا في القضاء على رسول الله ﷺ رماه عتبة بن أبي وقاص بالحجارة فوقع لشقه، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وكلمت شفته السفلى، وتقدم إليه عبد الله الزهري فشجه في جبهته، وجاء عبد الله بن قمئة فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة شكا لأجلها أكثر من شهر، وضربه بأبي هو وأمي ضربة أخرى عنيفة حتى دخلت حلقتان من حلق المقفر في وجنته، فقال عليه الصلاة السلام وهو يسلت الدم عن وجهه :" كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" .

واستبسل سعد وطلحة في الدفاع عن رسول الله فقد نثل رسول الله ﷺ كنانته لسعد بن أبي وقاص وقال: ارم فداك أبي وأمي، وأما طلحة فقد قاتل حتى شلت يده، وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا ذكر يوم أحد قال: ذلك اليوم كله لطلحة. وروى الترمذي أن النبي ﷺ قال فيه يومئذ: " من ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله" .

آخر هجوم قام به المشركون :

ولما تمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقر قيادته في الشعب قام المشركون بآخر هجوم حاولوا به النيل من المسلمين. قال ابن إسحاق: بينما رسول الله ﷺ في الشعب إذ علت عالية من قريش الجبل . يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد . فقال رسول الله ﷺ : " اللهم إنه لاينبغي لهم أن يعلونا " ، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل .

وهكذا انهزم المسلمون فى غزوة أحد بسبب عدم طاعة الجند المسلمين لقائدهم ونبيهم رسول الله ﷺ وتركوا أماكنهم فى سبيل تحصيل الغنائم التى تركها المشركين رغم وصاية رسول الله ﷺ ألا يغادروا أماكنهم مهما حدث للمسلمين وذلك لحماية ظهر المسلمين أثناء الحرب ، ومن تلك الثغرة استغل خالد بن الوليد بعبقريته المعهودة و الذى مازال مشركاً فى تلك الغزوة موقف المسلمين ، وبذكاء وداهية القائد المحنك استطاع أن ينقض على المسلمين أثناء انشغالهم فى الغنائم وحقق النصر على المسلمين فى تلك الغزوة .

غزوة الخندق

تحريض اليهود لقريش وما نزل فيهم :

إنه كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود ، منهم سلام بن أبي الحقيق النضري ، وحيي بن أخطب النضري ، وكنانة بن أبي الحقيق النضري ، وهوذة بن قيس الوائلي ، وأبو عمار الوائلي ، في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا حتى قدموا على قريش مكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، فقالت لهم قريش : يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق (منه) .

تحريض اليهود لغطفان :

قال فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا لذلك واتعدوا له . ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان ، من قيس عيلان ، فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه .

خروج الأحزاب من المشركين :

قال ابن إسحاق : فخرجت قريش ، وقائدها أبو سفيان بن حرب ; وخرجت غطفان ، وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر ، في بني فزارة والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري ، في بني مرة ومسعر بن رخيلة بن نويرة بن طريف بن سحمة بن عبد الله بن هلال بن خلاوة بن أشجع بن ريث بن غطفان ، فيمن تابعه من قومه من أشجع .

حفر الخندق وتخاذل المنافقين وجد المؤمنين :

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ، وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة ، فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ترغيبا للمسلمين في الأجر وعمل معه المسلمون فيه فدأب فيه ودأبوا.

وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا إذن.

وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد له منها ، يذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويستأذنه في اللحوق بحاجته فيأذن له فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتسابا له .

ما أرى الله رسوله من الفتح :

قال ابن إسحاق : وحدثت عن سلمان الفارسي ، أنه قال : " ضربت في ناحية من الخندق ، فغلظت علي صخرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قريب مني ; فلما رآني أضرب ورأى شدة المكان علي نزل فأخذ المعول من يدي ، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة قال ثم ضرب به ضربة أخرى ، فلمعت تحته برقة أخرى ; قال ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى . قال قلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال أوقد رأيت ذلك يا سلمان ؟ قال قلت : نعم قال أما الأولى فإن الله فتح علي بها اليمن ; وأما الثانية فإن الله فتح علي بها الشام والمغرب وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق " .

قال ابن إسحاق : وحدثني من لا أتهم عن أبي هريرة أنه كان يقول حين فتحت هذه الأمصار في زمان عمر وزمان عثمان وما بعده افتتحوا ما بدا لكم فوالذي نفسي أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله سبحانه محمدا صلى الله عليه وسلم مفاتيحها قبل ذلك .

نزول قريش المدينة :

قال ابن إسحاق : ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق ، أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة ، بين الجرف وزغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، حتى نزلوا بذنب نقمى ، إلى جانب أحد .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع ، في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم .

عبور نفر من المشركين الخندق

قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون وعدوهم محاصروهم ولم يكن بينهم قتال إلا أن فوارس من قريش ، منهم عمرو بن عبد ود بن أبي قيس ، أخو بني عامر بن لؤي .

– قال ابن هشام : ويقال عمرو بن عبد بن أبي قيس .

قال ابن إسحاق : وعكرمة بن أبي جهل ، وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان وضرار بن الخطاب الشاعر بن مرداس أخو بني محارب بن فهر ، تلبسوا للقتال ثم خرجوا على خيلهم حتى مروا بمنازل بني كنانة ، فقالوا : تهيئوا يا بني كنانة للحرب فستعلمون من الفرسان اليوم . ثم أقبلوا تعنق بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها . وكان خالد بن الوليد قائد لخيل المشركين وكانت أضخم كتائب جيش قريش وأقواها وأقساها هى كتيبة خالد بن الوليد ، وقد وحاول مراراً أن يقتحم الخندق ولكنه فشل .

قتل علي – كرم الله وجهه– لعمرو بن عبد ود:

قال ابن إسحاق : ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق ، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع ، وخرج علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه– في نفر معه من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أحد ; فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليري مكانه فلما وقف هو وخيله قال من يبارز ؟

فبرز له علي بن أبي طالب فقال له يا عمرو ، إنك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه قال له أجل قال له علي : فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام قال لا حاجة لي بذلك قال فإني أدعوك إلى النزال فقال له لم يا ابن أخي ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك ، قال له علي : لكني والله أحب أن أقتلك ; فحمى عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ثم أقبل على علي فتنازلا وتجاولا ، فقتله علي رضي الله عنه . وخرجت خيلهم منهزمة .

دبيب الفرقة بين المشركين :

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان من صنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل ، في نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : "إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ، ونفرغ مما بيننا وبينه فأرسلوا إليهم إن اليوم يوم السبت وهو (يوم) لا نعمل فيه شيئا ،

وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثا ، فأصابه ما لم يخف عليكم ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا ، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا ، والرجل في بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك منه" .

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة ، قالت قريش وغطفان : والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا بني قريظة إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا ; فقالت بنو قريظة ، حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم . وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنا والله لا نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا ; فأبوا عليهم وخذل الله بينهم وبعث الله عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم.

أرسل الرسول حذيفة ليتعرف ما حل بالمشركين :

(قال) : فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اختلف من أمرهم وما فرق الله من جماعتهم دعا حذيفة بن اليمان ، فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلا .

قال ابن إسحاق : فحدثني يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظي ، قال قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان يا أبا عبد الله أرأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه ؟ قال نعم يا ابن أخي ، قال فكيف كنتم تصنعون ؟ قال والله لقد كنا نجهد قال فقال والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا . قال فقال حذيفة يا ابن أخي ، والله لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويا من الليل ثم التفت إلينا فقال : " من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع – يشرط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة – أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة ؟ فما قام رجل من القوم ، من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد فلما لم يقم أحد ، دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني ;

فقال يا حذيفة اذهب فادخل في القوم ، فانظر ماذا يصنعون ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا . قال فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدر ولا نار ولا بناء . فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش : لينظر امرؤ من جليسه ؟ قال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي ، فقلت : من أنت ؟ قال فلان بن فلان " .

مناداة أبى سفيان فيهم بالرحيل :

ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي " أن لا تحدث شيئا حتى تأتيني "، ثم شئت ، لقتلته بسهم .

انصراف الرسول عن الخندق :

قال ابن إسحاق : ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة والمسلمون ووضعوا السلاح .

معاداة خالد بن الوليد للإسلام والمسلمين

يتضح من هذا بجلاء أن "خالد" – كغيره من أبناء "قريش"– معاديا للإسلام ناقما على النبي (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين الذين آمنوا به وناصروه، بل كان شديد العداوة لهم شديد التحامل عليهم، ومن ثَم فقد كان حريصا على محاربة الإسلام والمسلمين، وكان في طليعة المحاربين لهم في كل المعارك التي خاضها الكفار والمشركون ضد المسلمين.

فإن " خالدا " كان أحد صناديد قريش يوم الخندق الذين كانوا يتناوبون الطواف حول الخندق علهم يجدون ثغرة منه؛ فيأخذوا المسلمين على غرة، ولما فشلت الأحزاب في اقتحام الخندق، وولوا منهزمين، كان "خالد بن الوليد" أحد الذين يحمون ظهورهم حتى لا يباغتهم المسلمون.وفي "الحديبية" خرج "خالد" على رأس مائتي فارس دفعت بهم قريش لملاقاة النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه، ومنعهم من دخول مكة، وقد أسفر الأمر عن عقد معاهدة بين المسلمين والمشركين عرفت باسم "صلح الحديبية."

وقد تجلت كراهية "خالد" للإسلام والمسلمين حينما أراد المسلمون دخول مكة في عمرة القضاء؛ فلم يطق خالد أن يراهم يدخلون مكة –رغم ما بينهم من صلح ومعاهدة– وقرر الخروج من مكة حتى لا يبصر أحداَ منهم فيها.

قصة إسلامه

الرسالة :

أسلم خالد في (صفر 8 هـ= يونيو 629م)؛ أي قبل فتح مكة بستة أشهر فقط، وقبل غزوة مؤتة نحو شهرين.

وتعود قصة إسلام خالد إلى ما بعد معاهدة الحديبية حيث أسلم أخوه الوليد بن الوليد، ودخل الرسول –صلى الله عليه وسلم– مكة في عمرة القضاء فسأل الوليد عن أخيه خالد، فقال: (أين خالد؟)... فقال الوليد: (يأتي به الله .

فقال النبي: –صلى الله عليه وسلم – : " ما مثله يجهل الإسلام، ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيراً له، ولقد مناه على غيره ... " فخرج الوليد يبحث عن أخيه فلم يجده، فترك له رسالة قال فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد... فأني لم أرى أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك، ومثل الإسلام لا يجهله أحد؟!... وقد سألني عنك رسول الله، فقال أين خالد – وذكر قول النبي –صلى الله عليه وسلم– فيه – ثم قال له :فاستدرك يا أخي ما فاتك فيه، فقد فاتتك مواطن صالحة.

وقد كان خالد -رضي اللـه عنـه- يفكر في الإ سلام، فلما قرأ رسالة أخيـه سرَّ بها سروراً كبيراً، وأعجبه مقالة النبـي -صلى اللـه عليه وسلم-فيه، فتشجع وأسلم ...

الحُلم :

ورأى خالد في منامه كأنه في بلادٍ ضيقة جديبة، فخرج إلى بلد أخضر واسع، فقال في نفسه: (إن هذه لرؤيا)... فلما قدم المدينة ذكرها لأبي بكر الصديق فقال لـه: (هو مخرجَك الذي هداك الله للإسلام، والضيق الذي كنتَ فيه من الشرك.

الرحلة :

يقول خالد عن رحلته من مكة إلى المدينة: (وددت لو أجد من أصاحب، فلقيت عثمان بن طلحة فذكرت لـه الذي أريد فأسرع الإجابة، وخرجنا جميعا فأدلجنا سحرا، فلما كنا بالسهل إذا عمرو بن العاص، فقال) : مرحباً بالقوم)... قلنا: (وبك)... قال: (أين مسيركم؟)... فأخبرناه، وأخبرنا أيضاً أنه يريد النبي ليسلم، فاصطحبناه حتى قدمنا المدينة أول يوم من صفر سنة ثمان.

قدوم المدينة :

فلما رآهم رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «رمتكم مكة بأفلاذ كبدها» ... يقول خالد: (ولما اطلعت على رسول الله ﷺ سلمت عليه بالنبوة فرد على السلام بوجه طلق، فأسلمت وشهدت شهادة الحق .

وحينها قال الرسول ﷺ : (الحمد لله الذي هداك قد كنت أرى لك عقلاً لا يسلمك إلا إلى الخير)... وبايعت الرسول وقلت: (استغفر لي كل ما أوضعت فيه من صد عن سبيل الله)... فقال: (إن الإسلام يجب ما كان قبله)... فقلت: (يا رسول الله على ذلك)... فقال » :اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك ... « وتقدم عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة، فأسلما وبايعا رسول الله ...

غزوة مؤتة عام 8 هجرياً

في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة المباركة حدث حدث عظيم، وقامت حرب دامية هي أعظم حرب يخوضها المسلمون في حياة النبي ﷺ، كانت مؤشر البدء لفتح بلدان النصارى، إنها أكبر لقاء مثخن يدخله عسكر المسلمين مذ قام الجهاد في سبيل الله.

بعث النبي ﷺ الحارث بن عمير الأزدي رضي الله عنه بكتابه إلى عظيم بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل القيصر، فأوثقه رباطًا، ثم قدمه، فضرب عنقه، وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم، بل هو يزيد على إعلان العداء والحرب، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين نقلت إليه الأخبار، فجهز جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، كأكبر جيش إسلامي لم يجتمع من ذي قبل إلا ما كان من غزوة الأحزاب. إنها معركة مؤتة وهي قرية من قرى الشام بينها وبين بيت المقدس مرحلتان.

أمَّر رسول الله ﷺعلى هذا الجيش زيد بن حارثة، وقال: (إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة) وعقد لهم لواء أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم وقاتلوهم.

ولما تهيأ الجيش للخروج حضر الناس، وودعوا أمراء رسول الله ﷺ ، وسلموا عليهم، وحينئذ بكى عبد الله بن رواحة فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا، ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار

﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمًا مَّقۡضِيًّا ﴾ [1]

فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود، فقال المسلمون: صحبكم الله بالسلامة، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين غانمين. قال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مروا على جدثي يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

---

[1] مريم 71

ثم خرج القوم، وخرج رسول الله ﷺ مشيعا لهم حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف وودعهم.

وتحرك الجيش في اتجاه الشام حتى نزل بمعان من أرض الشام مما يلي الحجاز، عندها نقلت إليهم الأخبار بأن هرقل نازل بماب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي مائة ألف.

حيذ ها وقف المسلمون دهشين، لم يكن في حسابهم لقاء مثل هذا الجيش الكبير الذي لقوه بغتة في أرض غريبة بعيدة، وهل يهجم جيش صغير قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، على جيش كبير كالبحر الخضم قوامه مائتا ألف مقاتل، بعددهم وعتادهم، حار المسلمون وأقاموا في معان ليلتين يفكرون في أم رهم، وينظرون ويتشاورون، ثم قالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد العدو، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، ولكن عبد الله بن رواحة عارض هذا الرأي، وقال قولة حق ستبقى على مدى التأريخ درسا بليغًا لأهل الحق الذين يحملون رايته، ويدافعون عن حياضه، وستبقى ما بقي الدهر حجرا في أفواه الجبناء أهل الخور والضعف والدعة من أحفاد أبي بن خلف، وأذنابه،

قال ابن رواحة: يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة.

إلى المرابطين في الثغور، والمجاهدين في ساحات الوغى، ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين، إلى أهل الإسلام والحق الداعين إليه، المرابطين على ثغور الكلمة ونشر المبدأ، الساعين لإعادة الأمة إلى مجدها وعزها، ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين.

إلى الجبناء، المنكسرين، المنهزمين، الذين يخترقون صف الأمة الواحد، يعيثون في الأرض فساداً وينشرون الباطل والزيغ، يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين، إنها كلمة عظيمة لابد أن تبقى شعارا تتعاقبه أجيال الأمة جيل بعد جيل ينقله الأباء والأجداد إلى الأبناء والأحفاد، يرضعه الوليد مع لبن أمه،

ويلقنه الصغير، ويحى عليه الكبير لابد أن تبقى هذه الكلمات نبراسا يضي للأمة طريقها في نشر دين الله، في جهادها ودعوتها وعلمها وعملها ، وأخيرا استقر الرأي على ما دعا إليه البطل ابن رواحة رضي الله عنه ، وبعد أن قضى الجيش الإسلامي ليلتين في معان تحركوا إلى أرض العدو، حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية مشارف من قرى البلقاء، ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى مؤتة، فعسكروا هناك، وتعبأ للقتال فجعلوا على ميمنتهم قطبة بن قتادة الغدري، وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصاري رضي الله عنهم أجمعين.

وفي مؤتة التقى الفريقان، وبدأ القتال المرير ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتي ألف مقاتل، إنها معركة عجيبة تشهدها دنيا النزال بالدهشة والحمية، في مقياس الماديات، ماذا يصنع ثلاثة آلاف في مواجهة مائتي ألف مدججين بالسلاح والعتاد وهل تقف النظرة عند هذا، كلا وربي، ولكن إذا هبت نسائم الإيمان جاءت بالعجائب.

أخذ الراية زيد بن حارثة حبُّ رسول الله ﷺ وجعل يقاتل بضراوة بالغة، وبسالة لا تحق إلا لمثل زيد، فلم يزل يقاتل ويقاتل ويخترق الصفوف صفًا صفًا، والقوم أمامه بين صريع وقتيل، إذ شاط في رماح العدو، حتى خرَّ صريعا.

وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، وطفق يقاتل قتالاً منقطع النظير، حتى إذا أرهقه القتال نزل عن فرسه الشقراء وعقرها، ثم قاتل فقطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ولم يزل بها حتى قطعت شماله، فاحتضنها بعضديه رافعا إياها حتى قتل بضربة رومي قطعته نصفين، فأبدله الله بهما جناحين يطير بهما في الجنة، فكان يسمى بعد ذلك جعفر الطيار. روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية كلها فيما أقبل من جسده" ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة وتقدم وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد حتى حاد حيدة وقال:

أقسمت يا نفس لتنزلنـه	كارهة أو لتطاوعنـه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة	مالي أراك تكرهين الجنة

ثم نزل، فأتاه ابن عم له بعرق لحم، فقال: شد بهذا صلبك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده فانتهس منه نهسة، ثم ألقاه من يده وأخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قتل.

عندها تقدم رجل من بني عجلان يقال له ثابت بن أرقم فأخذ الراية وقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية قاتل قتالاً مريرا، فقد روى البخاري عن خالد بن الوليد قال: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفحة يمانية.وقد قال رسول الله ﷺ يوم مؤتة كما أخرج البخاري في صحيحه، مخبرا بالوحي، قبل أن يأتي إلى الناس الخبر من ساحة القتال: (أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، وفتح الله عليهم).

مناورات خالد بن الوليد :

اتخذ خالد قراراً سريعاً وقد توهجت فيه شعلة القائد أصدر أوامره بالتظاهر بالارتداد موهماً العدو فى الوقت نفسه أنه لا ينسحب وإنما يدبر حيلة ليعاود الهجوم ، وتحاجز الجيشان عن القتال حين ساد الظلام .

وفى الليل فكر خالد فى أمر القتال فرأى ألا قبل لجيشه بجيش العدو وعليه أن يدبر حيلاً حربية يرهب بها العدو .

ونجح خالدٌ رضي الله عنه في الصمود بجيشه أمام جيش الرومان طوال النهار، وكان لابدَّ من مكيدة حربيـ ة، تُلْقِى الرعب في قلوب الرومان، حتى ينجح في الانحياز بالمسلمين وينجو من مطاردة الرومان لجيشه، وقبل أن ينكشف المسلمون. ولما أصبح في اليوم الثاني، غيَّر أوضاع الجيش، وعبأه من جديد، فجعل مقدمة الجيش ساقته وميمنته ميسرة، والعكس، ومن خلال هذه التنقلات التى قام بها القائد الفذ خالد بن الوليد أحدثت عاصفة من الرمال نتيجة تغيير مواضع الجيش فتوهم الجيش الرومانى أن المسلمين قد جاءهم مدد .

فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم. وقالوا: جاءهم مدد فرعبوا، وصار خالدٌ بعد أن ترآى الجيشان، وتناوشا ساعة يتأخر بالمسلمين قليلاً قليلاً، محافظًا على نظام الجيش فلم يتبعهم الرومان خوفًا من مكيدة يدبرها المسلمون فحافظ على جيشه وعاد الرومان إلى بلادهم خائبين.

وهكذا عاد المسلمون لم يلقوا ضررا، واستشهد منهم اثنا عشر رجلاً، ولا يعلم عدد قتلى الرومان لكثرتهم ونستطيع أن نخرج من هذه الغزوة بنتائج مهمة منه ا:

أولاً– أن النظرة المادية المجردة عند قياس معيار القوة والضعف بعيد كل البعد عن الواقعية والفهم العميق للحياة وسبر أغوار بواطن الأمور، إذ الوقائع تشهد، والأحداث على مر العصور تبرهن بأنه

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [1] .

ثانيا– أن الإيمان في قلوب أهله، أقوى من قوى العالم وإن اجتمعت، فكم من مجاهد أعزل من السلاح يرفع إصبع السبابه يناجي ربه، وكم من دعوة في جنح الظلام تفتح لها أبواب السماء، تفعل الأفاعيل في الأعداء بل هي أشد عليهم من آلاف المقاتلين وقد قالوها، والحق ما شهدت به الأعداء.

ثالثًا– أن على الأمة أن تربي أبناءها على حب دينهم واعتزازهم به، والشعور بالنصر والعلو والفخر ألا فلينقش على القلوب والصدور ولتردده الأفواه والسطور

(1) البقرة من الآية 249

﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [2]

رابعا- على الآباء والأمهات والمربين أيًّا كانوا وعلى الأمة جمعاء أن تعاود النظر في عرض القدوات للأجيال، فلابد من نشر سير أولئك الأفذاذ من صحابة رسول الله ﷺ وأتباعهم، ليرتسم الأبناء سير الأجداد منهجا للحياة ودستورا للواقع.

[2] آل عمران 139

فتح مكة 8 هجرياً

ماقبل الفتح :

ازداد عدد المسلمين في المدينة فقد أسلم كل أهلها تقريباً، وهاجر إليها آخرون من مكة ومناطق أخرى ولم يعد المسجد النبوي يتسع للمصلين فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بزيادة مساحته، فأضيفت إليه أرض مجاورة وامتد العمران ليستوعب الأعداد الجديدة وازدهرت الحياة وتواصل خروج الدعاة والسرايا لنشر الإسلام وتأديب خصومه الذين يقفون في طريق الدعوة أو يعدون للعدوان على المسلمين وكانت معظم السرايا تنجح في مهمتها بقيادة خالد بن الوليد ، فتدخل القبائل في الإسلام أو تهرب أو تصاب بضربة موجعة. وكانت في بعضها تخسر الشهداء كما حدث في غزوة مؤتة حيث سقط عدد من الشهداء قبل أن ينسحب خالد بن الوليد بالمسلمين ولكن الحصيلة العامة كانت لصالح الإسلام والمسلمين، فكانت قوتهم تتعاظم وحياتهم في المدينة تترسخ في ظلال الشريعة، والوحي يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظم لهم أمور دينهم.

سبب الغزوة :

في وقعة الحديبية بنداً من بنود هذه المعاهدة يفيد أن من أحب أن يدخل في عقد محمد صلى الله عليه وسلم وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزء من ذلك الفريق، فأي عدوان تتعرض له أي من تلك القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريق.

وحسب هذا البند دخلت خُزَاعَة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وصارت كل من القبيلتين في أمن من الأخري، وقد كانت بين القبيلتين عداوة وتوترات في الجاهلية، فلما جاء الإسلام، ووقعت هذه الهدنة، وأمن كل فريق من الآخر . اغتنمها بنو بكر، وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم، فخرج نَوْفَل بن معاوية الدِّيلِي في جماعة من بني بكر في شهر شعبان سنة 8 هـ، فأغاروا على خزاعة ليلاً، وهم على ماء يقال له: الوَتِير فأصابوا منهم رجالاً، وتناوشوا واقتتلوا،

وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل ، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل، إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك، فقال كلمة عظيمة: لا إله اليوم يا بني بكر، أصيبوا ثأركم. فلعمري إنكم لتَسرِقُون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟

ولما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بدَيل بن ورقَاء الخزاعي، وإلى دار مولي لهم يقال له: رافع .

وأسرع عمرو بن سالم الخزاعي، فخرج حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فوقف عليه، وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نصرت يا عمرو بن سالم)، ثم عرضت له سحابة من السماء، فقال: (إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب).

ثم خرج بدَيل بن ور قَاء الخزاعي في نفر من خُزَاعَة، حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فأخبروه بمن أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم رجعوا إلى مكة.

أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح :

ولا شك أن ما فعلت قريش وحلفاؤها كان غدراً محضاً ونقضاً صريحاً للميثاق، لم يكن له أي مبرر، ولذلك سرعان ما أحست قريش بغدرها، وخافت وشعرت بعواقبه الوخيمة، فعقدت مجلساً استشارياً، وقررت أن تبعث قائدها أبا سفيان ممثلاً لها ليقوم بتجديد الصلح.

وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بما ستفعله قريش إزاء غدرتهم. قال: (كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقْدَ، ويزيد في المدة).

وخرج أبو سفيان . حسب ما قررته قريش . فلقي بديل بن ورقاء بعسفَان . وهو راجع من المدينة إلى مكة . فقال: من أين أقبلت يا بديل؟ . وظن أنه أتي النبي صلى الله عليه وسلم . فقال: سرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي. قال: أو ما جئت محمداً؟ قال: لا.

فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوي، فأتي مبرك راحلته، فأخذ من بعرها، ففته، فرأي فيها النوي، فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمد.

وقدم أبو سفيان المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه، فقال: يا بنية، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت رجل مشرك نجس. فقال: والله لقد أصابك بعدي شر.

ثم خرج حتى أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه، فلم يرد عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتي عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فوالله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتكم به، ثم جاء فدخل على علي بن أبي طالب، وعنده فاطمة، وحسن، غلام يدب بين يديهما، فقال: يا علي، إنك أمس القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائباً، اشفع لي إلى محمد، فقال: ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة، فقال: هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وحيئذ أظلمت الدنيا أمام عيني أبي سفيان، فقال لعلى بن أبي طالب في هلع وانزعاج ويأس وقنوط: يا أبا الحسن، إني أري الأمور قد اشتدت علي، فانصحني، قال: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك. ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الْحق بأرضك. قال: أو تري ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكني لم أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره، وانطلق.

ولما قدم على قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته، فوالله ما رد على شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت عمر بن الخطاب، فوجدته أدني العدو، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، قد أشار على بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني عني شيئاً أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا. قالوا: ويلك، إن زاد الرجل على أن لعب بك. قال: لا والله ما وجدت غير ذلك.

التهيؤ للغزوة ومحاولة الإخفاء :

يؤخذ من رواية الطبراني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عائشة ـ قبل أن يأتي إليه خبر نقض الميثاق بثلاثة أيام ـ أن تجهزه، ولا يعلم أحد، فدخل عليها أبو بكر، فقال: يابنية، ما هذا الجهاز؟ قالت: والله ما أدري. فقال: والله ما هذا زمان غزو بني الأصفر، فأين يريد رسول الله؟ قالت: والله لا علم لي، وفي صباح الثالث ة جاء عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً، وارتجز: يا رب إني ناشد محمداً... الأبيات . فعلم الناس بنقض الميثاق، وبعد عمرو جاء بديل، ثم أبو سفيان، وتأكد عند الناس الخبر، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجهاز، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة، وقال: (اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها).

وزيادة في الإخفاء والتعمية بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية قوامها ثمانية رجال، تحت قيادة أبي قتادة بن رِبْعِي، إلى بطن إضَم، فيما بين ذي خَشَب وذي المروة، على ثلاثة برد من المدينة، في أول شهر رمضان سنة 8 هـ ؛ ليظن الظان أنه صلى الله عليه وسلم يتوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار، وواصلت هذه السرية سيرها، حتى إذا وصلت حيثما أمرت بلغها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى مكة، فسارت إليه حتى لحقته.

وكتب حاطب بن أبي بلْتَعة إلى قريش كتاباً يخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جُعَلاً على أن تبلغه قريشاً، فجعلته في قرون رأسها، ثم خرجت به، وأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علياً والمقداد والزبير بن العوام وأبا مرثَد الغَنَوِي فقال: (انطلقوا حتى تأتوا روضَةَ خَاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش)، فانطلقوا تعادي بهم خيلهم حتى وجدوا المرأة بذلك المكان، فاستنزلوها، وقالوا: معك كتاب؟ فقالت: ما معي كتاب، ففتشوا رحلها فلم يجدوا شيئاً. فقال لها علي: أحلف بالله، ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبنا، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك. فلما رأت الجد منه قالت: أعرض، فأعرض، فحلت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليهم .

فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا فيه: (من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش) يخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً، فقال: (ما هذا يا حطب؟) فقال: لا تَعجل علي يا رسول الله. والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت ولا بدلت، ولكني كنت امرأ ملْصَقاً في قريش ؛ لست من أنْفَسِهم، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم، وكان من معك له قرابات يحمونهم، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي.

فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنه قد شهد بدراً، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) ، فذَرَفَتّ عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.

وهكذا أخذ الله العيون، فلم يبلغ إلى قريش أي خبر من أخبار تجهز المسلمين وتهيئهم للزحف والقتال.

الجيش الإسلامي يتحرك نحو مكة :

ولعشر خلون من شهر رمضان المبارك **8** هـ، غادر رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة متجهاً إلى مكـة، في عشرة آلاف من الصحابة رضي الله عنهم، واستخلف على المدينة أبا رهّم الغفاري.

ولما كان بالجُحْفَة ـ أو فوق ذلك ـ لقيه عمه العباس بن عبد المطلب، وكان قد خرج بأهله وعياله مسلماً مهاجراً، ثم لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان ابن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبي أمية، فأعرض عنهما، لما كان يلقاه منهما من شدة الأذي والهجو، فقالت له أم سلمة: لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقي الناس بك.

وقال علي لأبي سفيان بن الحارث: ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف:

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾[1]

فإنه لا يرضي أن يكون أحد أحسن منه قولاً. ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:

﴿ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[2]

فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال: (أنتَ طَرَّدْتَنَي كل مُطَرَّد؟).

---

[1] يوسف 91
[2] يوسف 92

الجيش الإسلامي ينزل بمرِّ الظَّهْرَان :

وواصل رسول الله صلى الله عليه وسلم سيره وهو صائم، والناس صيام، حتى بلغ الكُدَيد . وهو ماء بين عَسفَان وقُدَيد . فأفطر، وأفطر الناس معه. ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران . وادي فاطمة . نزله عشاء، فأمر الجيش، فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحرس عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

أبو سفيان بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وركب العباس . بعد نزول المسلمين بمر الظهران . بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء، وخرج يلتمس، لعله يجد بعض الحَطَّابة أو أحداً يخبر قريشاً ليخرجوا يستأمنون رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يدخلها.

وكان الله قد عمي الأخبار عن قريش، فهم على وجل وترقب، وكان أبو سفيان يخرج يتجسس الأخبار، فكان قد خرج هو وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار.

قال العباس: والله إني لأسير عليها . أي على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً. قال: يقول بديل: هذه والله خزاعة، حَمَشَتْها الحرب، فيقول أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال العباس: فعرفت صوته، فقلت: أبا حَنْظَلَة؟ فعرف صوتي، فقال: أبا الفضل؟ قلت: نعم. قال: مالك؟ فداك أبي وأمي. قلت: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس، وا صباح قريش والله!

قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟، قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة، حتى آتي بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك، فركب خلفي، ورجع صاحباه.

قال: فجئت به، فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين، قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عليها قالوا: عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته. حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إلى، فلما رأي أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان، عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد.

ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وركضتَ البغلة فسبقت، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله، إني قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت برأسه،

فقلت: والله لا يناجيه الليلة أحد دوني، فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت مثل هذا، قال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك كان أحب إلى من إسلام الخطاب، لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به)، فذهبت، فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآه قال: (ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟) قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغني عني شيئاً بعد.

قال: (ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟)، قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك: أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيء. فقال له العباس: ويحك أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله، قبل أن تضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق.

قال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً. قال: (نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن).

الجيش الإسلامي يغادر مر الظهران إلى مكة :

وفي هذا الصباح ـ صباح يوم الثلاثاء للسابع عشر من شهر رمضان سنة **8** هـ ـ غادر رسول الله صلى الله عليه وسلم مر الظهران إلى مكة، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خَطْمِ الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها، ففعل، فمرت القبائل على راياتها، كلما مرت به قبيلة قال: يا عباس، من هذه؟ فيقول ـ مثلا ـ سليم، فيقول: مإلى ولِسلَيم؟ ثم تمر به القبيلة فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟ فيقول: مزَينَة، فيقول: ما لي ولمزينة؟ حتى نفذت القبائل، ما تمر به قبيلة إلا سأل العباس عنها، فإذا أخبره قال: مالي ولبني فلان؟

حتى مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يري منهم إلا الحَدَق من الحديد، قال: سبحان الله! يا عباس، من هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة. ثم قال: والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملْكَ ابن أخيك اليوم عظيماً. قال العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: فنعم إذن.

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلما مر بأبي سفيان قال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستَحَلُّ الحَرمة، اليوم أذل الله قريشاً. فلما حاذي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان قال: يا رسول الله، ألم تسمع ما قال سعد؟ قال: (وما قال؟) فقال: قال كذا وكذا. فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بل اليوم يوم تُعَظّم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً) ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء، ودفعه إلى ابنه قيس، ورأي أن اللواء لم يخرج عن سعد. وقيل: بل دفعه إلى الزبير.

قريش تباغت زحف الجيش الإسلامي :

ولما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان ومضي قال له العباس: النجاء إلى قومك. فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة، وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به. فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحَمِيت الدسم الأخمش الساقين، قُبِّحَ من طَلِيعَة قوم.

قال أبو سفيان: ويلكم، لاتغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، ووبشوا أوباشاً لهم، وقالوا: نقدم هؤلاء، فإن كان لقريش شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا. فتجمع سفهاء قريش وأخفّاؤها مع عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو بالخَنْدَمة ليقاتلوا المسلمين.

الجيش الإسلامي بذي طُوَى :

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمضي حتى انتهي إلى ذي طوي . وكان يضع رأسه تواضعاً لله حين رأي ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل . وهناك وزع جيشه، وكان خالد بن الوليد على المُجَنَّبَة اليمني . وفيها أَسْلَمُ وسُلَيْم وغِفَار ومَزْيَنَة وجَهينَة وقبائل من قبائل العرب . فأمره أن يدخل مكة من أسفلها (جنوبها) ، وقال: (إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً، حتى توافوني على الصفا).

وتصدى لخالد نفر من مشركى قريش ناوشوه بالسهام فقتل منهم خالداً اثنى عشر رامياً وكان من بينهم أصدقاء له .

وكان الزبير بن العوام على المُجَنَّبَة اليسري، وكان معه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمره أن يدخ ل مكة من أعلاها . من كَدَاء . وأن يغرز رايته بالحَجُون، ولا يبرح حتى يأتيه.

وكان أبو عبيدة على الرجالة والحَسَّر . وهم الذين لاسلاح معهم- فأمره أن يأخذ بطن الوادي حتى ينصب لمكة بين يدي رسول الله ﷺ.

الجيش الإسلامي يدخل مكة :

وتحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامي على الطريق التي كلفت الدخول منها .

فأما خالد بن الوليد وأصحابه فلم يلقهم أحد من المشركين إلا أناموه. وقتل من أصحابه من المسلمين كُرْز بن جابر الفِهْرِي وخُنَيْس بن خالد بن ربيعة. كانا قد شذا عن الجيش، فسلكا طريقاً غير طريقه فقتلا جميعاً، وأما سفهاء قريش فلقيهم خالد وأصحابه بالخَنْدَمة فناوشوهم شيئا من قتال، فأصابوا من المشركين اثني عشر رجلاً، فانهزم المشركون، وانهزم حِماس بن قيس الذي كان يعد السلاح لقتال المسلمين .

وأقبل خالد يجوس مكة حتى وافى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا.

وأما الزبير فتقدم حتى نصب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحَجُون عند مسجد الفتح، وضرب له هناك قبة، فلم يبرح حتى جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الرسول صلى الله عليه وسلم يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، حتى دخل المسجد، فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول:

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[1]

والأصنام تتساقط على وجوهها.

[1] الإسراء 81

هدم العُزّى :

بعث الرسول –صلى الله عليه وسلم– إلى العُزّى يهدمها، فخرج خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً من أصحابه حتى انتهى إليها فهدمها، ثم رجع إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال :)(هُدَمَتْ؟)... قال: (نعم يا رسول الله)... فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم :-(هل رأيت شيئاً؟)... فقال: (لا)... فقال: (فإنك لم تهدمها، فأرجِعْ إليها فاهدمها)... فرجع خالد وهو متغيظ، فلما انتهى إليها جرد سيفه، فخرجت إليه إمرأة سوداء عريانة، ناشرة الرأس، فجعل السادنُ يصيح بها، قال خالد: (وأخذني اقشعْرارٌ في ظهري)... فجعل يصيح:

أعُزَّيَّ شدّي شدّةً لا تكذّبـي

أعَزّيَّ فالْقي للقناع وشَمّري

أعُزّي إن لم تقتلي اليوم خالداً

فبوئي بذنب عاجل فتنصري

وأقبل خالد بالسيف إليها وهو يقول:

يا عُزَّ كُفرانَك لا سُبحانَك

إنّي وجدتَ الله قد أهانَك

فضربها بالسيف فجزلها باثنتين، ثم رجع إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخبره فقال: « نعم ! تلك العزّى قد أيِسَتْ أن تُعبدَ ببلادكم أبداً » .

ثم قال خالد: (أي رسول الله، الحمدَ لله الذي أكرمنا بك، وأنقذنا من الهلَكة، ولقد كنت أرى أبي يأتي إلى العزّى نحيره، مئة من الإبل والغنم، فيذبحها للعزّى، ويقيم عندها ثلاثاً ثم ينصرف إلينا مسروراً، فنظرتَ إلى ما مات عليه أبي، وذلك الرأي الذي كان يعاش في فضله، كيف خُدع حتى صار يذبح لحجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع؟!)... فقال رسول الله: « إنّ هذا الأمر إلى الله، فمَنْ يسَّرَهُ للهدّى تيسر، ومَنْ يُسِّرَ للضلالة كان فيها ».

وكان طوافه على راحلته، ولم يكن محرماً يومئذ، فاقتصر على الطواف، فلما أكمله دعا الرسول الكريم ﷺ عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففتحت فدخلها، فرأي فيها الصور، ورأي فيها صورة إبراهيم، وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ يستقسمان بالأزلام، فقال: (قاتلهم الله، والله ما استقسما بها قط). ورأي في الكعبة حمامة من عيدان، فكسرها بيده، وأمر بالصور فمحيت.

وكان الرسول ﷺ يصلي في الكعبة ثم يخطب أمام قريش ثم أغلق عليه الباب، وعلى أسامة وبلال، فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبينه ثلاثة أذرع وقف، وجعل عمودين عن يساره، وعموداً عن يمينه، وثلاثة أعمدة وراءه ـ وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة ـ ثم صلي هناك. ثم دار في البيت، وكبر في نواحيه، ووحد الله، ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينتظرون ماذا يصنع؟ فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته، فقال: " لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثُرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين، إلا سِدَانَة البيت وسِقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد ـ السوط والعصا ـ ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل أربعون منها في بطونها أولاد".

" يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ، لا تثريب عليكم اليوم " .

ثم قال: (يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟) قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: (فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: {لاَ تَثْرِيب عَلَيكُم} اذهبوا فأنتم الطلقاء).

بلال يؤذن على الكعبة :

وحانت الصلاة، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا أن يصعد فيؤذن على الكعبة، وأبو سفيان بن حرب، وعتاب بن أسيد، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه حق لاتبعته. فقال أبو سفيان:

أما والله لا أقول شيئاً، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصباء. فخرج عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم: (لقد علمت الذي قلتم) ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما أطلع على هذا أحد كان معنا .

صلاة الفتح أو صلاة الشكر :

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ دار أم هانئ بنت أبي طالب، فاغتسل وصلى ثماني ركعات في بيتها . وكان ضحى . فظنها من ظنها صلاة الضحى، وإنما هذه صلاة الفتح، وأجارت أم هانئ حموين لها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ)، وقد كان أخوها علي بن أبي طالب أراد أن يقتلهما، فأغلقت عليهما باب بيتها، وسألت النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها ذلك.

إهدار دم رجال من أكابر المجرمين :

وأهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ دماء تسعة نفر من أكابر المجرمين، وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وهم عبد العزى بن خطل، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن نفيل بن وهب، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان كانتا لابن الأخطل، كانت تغنيان بهجو النبي صلى الله عليه وسلم، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب، وهي التي وجد معها كتاب حاطب.

فأما ابن أبي سرح فجاء به عثمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وشفع فيه، فحقن دمه، وقبل إسلامه بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله، وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر، ثم ارتد ورجع إلى مكة.

وأما عكرمة بن أبي جهل، ففر إلى اليمن، فاستأمنت له امرأته، فأمنه النبي صلى الله عليه وسلم فتبعته، فرجع معها وأسلم وحسن إسلامه.

وأما ابن خطل فكان متعلقًا بأستار الكعبة، فجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره، فقال: (اقتله) فقتله.

وأما مقيس بن صبابة فقتله نميلة بن عبدالله، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك، ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله، ثم ارتد ولحق بالمشركين.

وأما الحارث فكان شديد الأذى لرسول الله بمكة، فقتله علي.

وأما هبار بن الأسود فهو الذي كان قد عرض لزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها، ففر هبار يوم مكة ثم أسلم وحسن إسلامه ، وأما القينتان فقتلت إحداهما، واستؤمن للأخرى فأسلمت، كما استؤمن لسارة وأسلمت.

قال ابن حجر: وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلاطل الخزاعي، قتله على. وذكر الحاكم أيضاً ممن أهدر دمه كعب بن زهير، وقصته مشهورة، وقد جاء بعد ذلك وأسلم ومدح، ووحشي بن حرب، وهند بنت عتبة امرأه أبي سفيان، وقد أسلمت، وأرنب مولاه ابن خطل أيضاً قتلت، وأم سعد قتلت، فيما ذكر ابن إسحاق، فكملت العدة ثامنية رجال وست نسوة، ويحتمل أن تكون أرنب وأم سعد القينتان، أختلف في اسمهما أو باعتبار الكنية واللقب.

خطبة الرسول ﷺ في اليوم الثاني من الفتح: :

ولما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله ﷺ في الناس خطيباً، فحمد الله، وأثنى عليه، ومجده بما هو أهله، ثم قال:

" أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسولة ولم يأذن لكم، وإنما حلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب " .

وكانت خزاعة قتلت يومئذ رجلا من بنى ليث بقتيل لهم في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ بهذا الصدد: " يا معشر خزاعة، ارفعو أيديكم عن القتل، فلقد كثر القتل إن نفع، ولقد قتلتم قتالا لأدينه، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين، إن شاءوا فدم قاتله، وإن شاءوا فعقله " .

تخوّف الأنصار من بقاء الرسول ﷺ في مكة :

ولما تم فتح مكة على الرسول ﷺ وهي بلده ووطنه ومولده – قال الأنصار فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها – وهو يدعو على الصفا رافعاً يديه – فلما فرغ من دعائة قال: (ماذا قلتم؟) قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم).

أخذ البيعة :

وحين فتح الله مكة على رسول الله ﷺ والمسلمين، تبين لأهل مكة الحق، وعلموا أن لا سبيل إلى النجاح إلا الإسلام، فأذعنوا له، واجتمعوا للبيعة، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم

على الصفا يبايع الناس، وعمر بن الخطاب أسفل منه، يأخذ على الناس فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا.

وفي المدارك: روى أن النبي ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر قاعد أسفل منه، يبايعهن بأمره، ويبلغهن عنه، فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنكرة، خوفاً من رسول الله ﷺأن يعرفها؛ لما صنعت بحمزة، فقال رسول الله ﷺ : (أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئا)، فبايع عمر النساء على ألا يشركن بالله شيئا فقال رسول الله ﷺ : (ولا تسرقن) فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح، فإن أنا أصبت من ماله هنات؟ فقال أبو سفيان: وما أصبت فهو لك حلال، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها، فقال: (وإنك لهند؟) قالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبي الله، عفا الله عنك.

فقال: (ولا يزنين). فقالت: أو تزني الحرة؟

فقال: (ولا يقتلن أولادهن). فقالت: ربيناهم صغارا، وقتلناهم كبارا، فأنتم وهم أعلم . وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر. فضحك عمر حتى استلقى فتبسم رسول الله ﷺ.

قال: (ولا يأتين ببهتان) فقالت: والله إن البهتان لأمر قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق.

فقال: (ولا يعصينك في معروف) فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك.

ولما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول: كنا منك في غرور.

وفي الصحيح: جاءت هند بنت عتبة فقالت: يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يغزوا من أهل خبائك. قال: (وأيضا، والذي نفسي بيده) قالت: يا رسول ال،له إن أبا سفيان رجل مسيك فهل علي حرج أن أطعم من الذي له عيالنا؟ قال: (لا أره إلا بالمعروف).

غزوة حنين

وافقت أحداث هذه الغزوة السابع من شهر شوال، من السنة الثامنة من هجرة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم. ودارت رحاها في وادي حنين، وهو وادٍ إلى جنب ذي المجاز، بينه وبين مكة سبعة وعشرون كيلو مترًا تقريبًا، من جهة عرفات. وكان عدد المسلمين الذين اجتمعوا في هذه المعركة اثنا عشر ألفًا؛ عشرة آلاف من أهل المدينة، وألفين من أهل مكة .

سبب الغزوة :

لقد كان فتح مكة كما قال ابن القيم : " الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدي للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين. وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء...ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجا " .

وكان لهذا الفتح الأعظم رد فعل معاكس لدى القبائل العربية الكبيرة القريبة من مكة، وفي مقدمتها قبيلتا (هوزان) و(ثقيف). فقد اجتمع رؤساء هذه القبائل، وسلموا قياد أمرهم، إلى مالك بن عوف سيد (هوزان). وأجمعوا أمرهم على المسير لقتال المسلمين، قبل أن تتوطد دعائم نصرهم، وتنتشر طلائع فتحهم .

مجريات الغزوة ووقائعها :

وكان مالك بن عوف رجلاً شجاعا ومقداما، إلا أنه كان سقيم الرأي، وسيء المشورة؛ فقد خرج بقومه أجمعين، رجالاً ونساء وأطفالاً وأموالاً؛ ليشعر كل رجل وهو يقاتل أن ثروته وحرمته وراءه فلا يفر عنها. وقد اعترضه في موقفه هذا دريد بن الصمة – وكان فارسا مجربا محنكاً، قد صقلته السنون، وخبرته الأحداث – قائلاً له: وهل يرد المنهزم شيء؟ إن كانت الدائرة لك، لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك: فضُحْتَ في أهلك ومالك. فسفّه مالك رأيه، وركب رأسه، وأصر على المضي في خطته، لا يثنيه عن ذلك شيء .

وانتهى خبر مالك وما عزم عليه إلى رسول الله ﷺ ، فأخذ يجهز جيشه، ويعد عدته لمواجهة هذا الموقف. وكان مالك بن عوف قد استبق زمام المبادرة وتوجه إلى حنين، وأدخل جيشه بالليل في مضائق من ذلك الوادي، وفرق أتباعه في الطرق والمداخل، وأصدر إليهم أمره، بأن يرشقوا المسلمين عند أول ظهور لهم، ثم يشدوا عليهم شدة رجل واحد .

وكان رسول الله ﷺ قد عبأ جيشه بالسَّحر، وعقد الألوية والرايات، وفرقها على الناس، وقبل أن يبزغ فجر ذلك اليوم، استقبل المسلمون وادي حنين، وشرعوا ينحدرون فيه، وهم لا يدرون بما كان قد دُبِّر لهم بليل. وبينما هم ينحطون على ذلك الوادي، إذا بالنبال تمطر عليهم من كل حدب وصوب، وإذا بكتائب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد، فانهزم المسلمون راجعين، لا يلوي أحد على أحد، وكانت هزيمة منكرة لذلك الجمع الكبير .

وانحاز رسول الله ﷺذات اليمين، وهو يقول: (إلي يا عباد الله، أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب) ولم يبق معه في موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين والأنصار .

وقد روى لنا العباس رضي الله عنه هذا الموقف العصيب، وصوَّره لنا أدق تصوير، فقال: (شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فلزمت أنا و أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، فلما التقى المسلمون والكفار، ولّى المسلمون مدبرين،

فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قِبَلَ الكفار، فقال رسول الله ﷺ : أي عباس ! ناد أصحاب السَّمُرَة – أي: أصحاب بيعة العقبة – فقال عباس : أين أصحاب السمرة ؟ قال: فوالله لكأن عَطْفَتَهم حين سمعوا صوتي، عَطْفَة البقر على أولادها – أي: أجابوا مسرعين – فقالوا: يا لبيك يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفار...فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال: حمي الوطيس ، قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات، فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: انهزموا ورب محمد ، قال: فذهبت أنظر، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدهم كليلاً، وأمرهم مدبِرا – يعني قوتهم ضعيفة، وأمرهم في تراجع وهزيمة –) هذه رواية مسلم في "صحيحه". وقد فرَّ مالك بن عوف ومن معه من رجالات قومه، والتجئوا إلى الطائف، وتحصنوا بها، وقد تركوا وراءهم مغانم كثيرة، فأرسل رسول الله ﷺ على أثرهم فريقًا من الصحابة، حاصروهم، وقاتلوهم حتى حسموا الأمر معهم .

وهذا الحدث وما رافقه من مجريات ووقائع، هو الذي أشار إليه سبحانه وتعالى، بقوله:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [1]

لقد كان موقف رسول الله ﷺ وثباته في هذه المعركة مع قلة من الصحابة أمثال القائد خالد بن الوليد الذى أصيب بجراح دليلاً ناصعا، وبرهاناً ساطعا على عمق إيمانه بالله، وثقته بنصره وتأييده، وتحققه بأن نتيجة المعركة سوف تكون إلى جانب الحق. وإنك لتبصر صورة نادرة، وجرأة غير معهودة في مثل هذه المواقف؛ فقد تفرقت عنه ﷺ الجموع، وولوا الأدبار، لا يلوي واحد منهم على أحد، ولم يبق إلا رسول الله وسط ساحات الوغى، حيث تحفُّ به كمائن العدو من كل جانب، فثبت ثباتاً عجيبا، امتد أثره إلى نفوس أولئك الفارين، فعادت إليهم من ذلك المشهد رباطة الجأش، وقوة العزيمة .

[1] التوبة 25 : 26

تداعيات هذه الغزوة وجراح خالد :

في "غزوة حنين" كان "خالد" على مقدمة خيل" بني سليم" في نحو مائة فارس، خرجوا لقتال قبيلة "هوازن" في (شوال 8هـ = فبراير630 م)، وقد أبلى فيها "خالد" بلاء حسناً، وقاتل بشجاعة، وثبت في المعركة بعد أن فرَّ من كان معه من "بني سليم"، وظل يقاتل ببسالة وبطولة حتى أثخنته الجراح البليغة، فلما علم النبي (صلى الله عليه وسلم) بما أصابه سأل عن رحله ليعوده. ويوم حنين، كان خالد في مقدمة جيش المسلمين، وجرح في هذه المعركة، فأتاه رسول الله (ليطمئن عليه ويعوده، ويقال: إنه نفث في جرحه فشفي بإذن الله

ثم إن من تداعيات هذه المعركة، ما كان من مسألة تقسيم الغنائم – وقد غنم المسلمون مغانم كثيرة في هذه المعركة – وكانت هذه القسمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، مبنية على سياسة حكيمة، لكنها لم تُفْهم أول الأمر، فأُطْلِقتْ ألسنة شتى بالاعتراض، والقيل والقال .

وحاصل خبر تداعيات تقسيم الغنائم، ما رواه ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجدَ هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القَالَةُ – يعني كثرة الكلام بين الناس – حتى قال قائلهم: لقي – والله – رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة ، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجَدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: (فأين أنت من ذلك يا سعد ؟) قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي. قال: (فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة). فخرج سعد ، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا. وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد ، فقال: لقد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: (يا معشر الأنصار، ما قَالَة بلغتني عنكم، وَجِدَةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟)

قالوا: بلى، الله ورسوله أمنُّ وأفضل. ثم قال: (ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟) قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل. قال: (أما والله لو شئتم لقلتم، فصدَقْتم ولصُدِّقْتُم: أتيتنا مكَذَّبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك. أوجدْتُم يا معشر الأنصار في أنفسكم فيَّ لَعَاعَةٍ من الدنيا – يعني شيئًا تافها – تَألفْتُ بها قوماً ليُسْلِمُوا، ووكَلْتُكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْباً، وسلكت الأنصار شعباً لسلكتُ شعب الأنصار. وإنكم ستلقون أثرة من بعدي، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض. اللّهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار) فبكي القوم حتى اخضلت – تبللت – لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قَسما وحظاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ ، وتفرق الجمع .

الدروس والعبر المستفادة :

لقد كانت غزوة حنين هذه درسا عظيما في العقيدة الإسلامية، وممارسة عملية لفهم قانون الأسباب والمسببات؛ فإذا كانت وقعة بدر قد علّمت الجماعة المسلمة أن القلة إذا كانت مؤمنة بالله حق الإيمان، وآخذة بأسباب النصر، لا تضر شيئًا في جنب كثرة الأعداء؛ فإن غزوة حنين قد علمت تلك الجماعة درسا جديدًا، حاصله أن الكثرة الكاثرة لا تغني شيئًا، ولا تجدي نفعا في ساحات المعركة، إذا لم تكن قد تسلحت بسلاح العقيدة والإيمان، وإذا لم تكن قد أخذت بأسباب النصر وقوانينه. فالنصر والهزيمة ونتائج المعارك لا يحسمها الكثرة والقلة، وإنما ثمة أمور أخر ورائها، لا تقل شأنًا عنها، إن لم تكن تفوقها أهمية واعتبارا، لتقرير نتيجة أي معركة.

فكانت حنين بهذا درساً، استفاد منه المسلمون غاية الفائدة، وتعلموا منه قواعد النصر وقوانينه .

ومن الدروس المستفادة من هذه المعركة، والعبر المستخلصة منها، حكمة سياسة النبي ﷺ في تقسيم الغنائم وتوزيعها، فقد اختص في هذه المعركة الذين أسلموا عام الفتح بمزيد من الغنائم عن غيرهم، ولم يراع في تلك القسمة قاعدة المساواة بين المقاتلين. وفي هذا دلالة على أن لإمام المسلمين أن يتصرف بما يراه الأنسب والأوفق لمصلحة الأمة دينًا ودنيا .

ويستفاد من بعض تصرفاته ﷺ في هذه الغزوة، أن الدافع الأول وراء مشروعية الجهاد، هو دعوة الناس إلى دين الإسلام، وهدايتهم إلى الطريق المستقيم، وإرشادهم إلى الدين القويم، وهو الهدف الأساس الذي جاءت شريعة الإسلام لأجله؛ ولم يكن الهدف من مشروعية تلك الغزوات تحقيق أهداف اقتصادية، ولا تحصيل مكاسب سياسية. يشهد لهذا المعنى موقفه ﷺ من مالك بن عوف – وكان المحرك الأساس، والموجه الأول لمعركة حنين .

غزوة دومة الجندل

سرية خالد إلى الأكيدر :

وبعث رسول الله ﷺ أيضاً وهو بتبوك خالد بن الوليد في أربعمائة وعشرين فارساً، إلى أكيدر بن عبدالملك من كندة، وكان ملكاً عليها، وكان نصرانياً وحاكماً على منطقة دومة الجندل، ودومة الجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبل طيء، ودومة هي من قريات من وادي القرى، وذكر أنّ عليها حصناً حصيناً يقال له مارد وهو حصن أكيدر الملك.

وأكيدر هذا كان يهدد رسول الله ﷺ بأنه سيقصده ويقتل أصحابه ويبيد خضراءهم، وكان المنافقون يهدّدون المسلمين بهم وبسطوهم عليهم.ولذلك قال خالد: يا رسول الله كيف لي به وسط بلاد كلب وأنمار وما هو عليه من العدّة والعدد وأنا في أُناس يسير؟ فقال رسول الله ﷺ : لعل الله يكفيكه بصيد البقر فتأخذه.

فخرج خالد ومن معه فلما بلغ قريباً من حصن الأكيدر بمنظر للعين وكانت ليلة مقمرة صائفة وهو على سطح له في الحصن ومعه امرأتين له يشرب الخمر معهما، إذ أقبلت البقر تنتطح وتحك بقرونها باب الحصن، فأشرفت امرأتاه على باب الحصن وقالتا لما رأتا البقر تحكّ بقرنها: هل رأيت مثل هذا قط؟

قال: لا والله.

قالتا: فمن يترك هذه الليلة؟

قال: لا أحد. فنزل فأمر بفرسه فأُسرج له وركب معه نفر من أهل بيته ومعه أخوه حسان، فخرجوا من حصنهم فطلبوها.

الأكيدر في الأسر :

فلما خرج الاكيدر ونفر معه يطلبون الصيد، تلقّتهم خيل رسول الله ﷺ، فاستأسر أكيدر وامتنع حسان فقاتل فقتل، وهرب من كان معه ودخل الحصن، وأغلقوا الباب دونهم .

ثم بعد أن بعث خالد بقباء اكيدر وسيفه ومنطقته إلى رسول الله ﷺ أقبل بأكيدر وسار معه أصحابه إلى باب الحصن، حتى إذا وصله سألهم أن يفتحوه له، فأبوا.

فقال له اكيدر: أرسلني أفتح الباب.

فأخذ عليه موثقاً وأرسله، فدخل وفتح الباب حتى دخل خالد وأصحابه، وأعطاه ثمانمائة رأس، وألفي بعير، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، وخمسمائة سيف.

فقبل ذلك منه وأقبل به إلى رسول الله ﷺ فحقن ﷺ دمه وصالحه على الجزية، وعلى أن يضيفوا من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيام، وأن يزودوهم إلى المرحلة التي تليها، ثم خلّى سبيله بعد أن كتب له كتاباً بإمارته على قومه.

عام الأحزان

ومن المدينة سير الرسول خالداً وفرسانه لهدم صنمى " اللات " بالطائف ، و " ود " (معبود بنى عبد ود) ، وحين عاد خالد وجد مسجد الرسول يضاء لأول مرة بعد صلاة العشاء بالفتيل بدلاً من القش المشتعل وعرف بخبر وفاة أم كلثوم ابنة الرسول وأكثم بن صيفى حكيم العرب وكان فى طريقه ليسلم على يدى الرسول، و يواسيه .

وإلى المدينة لم يتوقف قدوم القبائل لتعلن إسلامها من أطراف الجزيرة بأسرها ومن المدينة كان يخرج الدعاة إلى كل الأنحاء والعمال لجمع الزكاة ومن بين هؤلاء كان خالد بن الوليد حيث غادر خالد فى حر شهر يوليو فى السنة العاشرة للهجرة إلى نجران فأسلم بها بنو الحرث على يديه دون قتال .

وحين عاد خالد بن الوليد مع وفد نجران اليمنى وجد الرسول قد ودع الدنيا ولحق بالرفيق الأعلى وقد بايع الناس ابا بكر خليفة من بعده وكان الملك قد آل فى فارس إلى " كسرى برويز "

.

وإثر وفاة الرسول ارتدت قبائل كلية عن الإسلام ومنعت القبائل الزكان عن بيت المال بل حاولت القبائل أن تحيط بالمدينة وتغزوها فى غياب جيش " أسامة بن زيد " الذى سيره أبو بكر على الشام لإعادة قبيلة قضاعة إلى الإسلام ، وإثر عودة هذا الجيش ظافراً قسمه أبو بكر إلى أحد عشر لواء جعل عليها أحد عشر قائداً كان من بينهم خالد بن الوليد .

حروب الردة

لما توفي رسول الله ﷺ اتسع نطاق الردة ونجم النفاق في كل مكان إلا ما كان من المدينة ومكة والطائف والبحرين، ثم إن المناطق التي تقع إلى الشمال من المدينة، قد خاف أهلها بإرسال جيش أسامة، وقالوا : لو لم يكن للمسلمين قوة لما أرسلوا مثل هذا الجيش، فلنترك الأمر إلى قتالهم مع الروم، فإن انتصر الروم فقد كفونا القتال، وإن انتصر أسامة فقد ثبت الإسلام، وهذا ما جعل الردة والنفاق تنكفأ في تلك البقاع.

وكان المرتدون فريقين، أولهما قد سار وراء المتنبئين الكاذبين أمثال مسيلمة وطليحة والأسود، وآمنوا بما يقول الكذّابون، وثانيهما بقي على إيمانه بالله وشهادته بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وإقام الصلاة، إلا أنه قد رفض تأدية الزكاة وعدّها ضريبة يدفعها مكرهاً، وقد أرسل هذا الفريق الثاني وفداً إلى المدينة لمفاوضة خليفة رسول الله ﷺ ، وقد نزل على وجهاء الناس في المدينة، عدا العباس ابن عبد المطلب رضي الله عنه.

وقد وافق عدد من كبار المسلمين على قبول ما جاءت به رسل الفريق الثاني، وناقشوا في ذلك الأمر، أبا بكر، ومنهم عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة، وغيرهم، إلا أن أبا بكر رضي الله عنه قد رفض منهم ذلك، وقال قولته المشهورة "والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لجاهدتهم عليه".

وقال عمر لأبي بكر رضي الله عنهما : كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ : أُمرتَ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال : لا إله إلا الله، فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه، وحسابه على الله. فقال أبو بكر : والله لأقاتلنّ من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً [1] لقاتلتهم على منعهم. وهكذا رأى أبو بكر رضي الله عنه أن الإسلام كل لا يتجزأ وليس هنالك من فرق بين فريضة وأخرى، والزكاة وإن كانت من النظام الاقتصادي، إلا أنها ركن من أركان الإسلام، وعبادة بحد ذاتها، ولا يمكن تطبيق جزء من الإسلام وإهمال آخر. ورأى الصحابة أن الأخذ باللين أفضل إذ زلزلت الأرض بالردة والنفاق.

---

[1] العناق : السخلة، الأنثى الصغيرة من الماعز.

وقال عمر رضي الله عنه : يا خليفة رسول الله ! تألف الناس وارفق بهم، فأجابه أبو بكر : إنه قد انقطع الوحي، وتم الدين، أو ينقص وأنا حي؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ إلا بحقها، ومن حقها الصلاة وإيتاء الزكاة، والله لو خذلني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي.

وردّ أبو بكر وفد المنافقين الذين امتنعوا عن دفع الزكاة، مسفهاً رأيهم، مستمسكاً بالحق في إجبارهم على الخضوع الصحيح للدين فعاد رجال الوفد إلى قبائلهم وأخبروهم بقلة عدد المسلمين – وكان جيش أسامة قد انطلق – وأطمعوهم بغزو المدينة . وكان أبو بكر رضي الله عنه عندما عاد إلى المدينة بعد أن شيع جيش أسامة قد جعل كبار الصحابة على منافذ المدينة إلى البادية، ومنهم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وطلب من أهل المدينة أن يكونوا في المسجد استعداداً لكل طارئ، وقال لهم : إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم قلة، وإنكم لا تدرون أليلاً تؤتون أما نهاراً وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم، ونبذنا إليهم عهدهم، فاستعدوا وأعدوا.

كان أبو بكر رضي الله عنه يريد أن يؤخر قتال المنافقين والمرتدين حتى يعود جيش أسامة، لذا كان يستقبل الرسل ويبعث بآخرين، إلا أنه في الوقت نفسه أراد بعض المنافقين أن يستغلوا الفرصة ويهاجموا المدينة قبل عودة الجيش الإِسلامي من بلاد الروم، وقبل استكمال المسلمين لقوتهم. فلم تمض أيام ثلاثة على عودة أبي بكر إلى المدينة من تشييع أسامة حتى داهمت المدينة غارة ليلاً، وقد اطمأن المغيرون إلى أن الجيش الإِسلامي قد ابتعد عن المدينة وأوغل في البعد.

وصلت الغارة إلى المدينة المنورة وقد خلفت وراءها قوةً ردءاً لها في (ذي حسى) [1]، وعندما طرقت الغارة الأنقاب وجدت عليها المقاتلة، ووراءهم أقوام أشبه بالمراسلين، فأوصلوا الخبر إلى أبي بكر في المسجد، فأرسل أبو بكر إلى المقاتلة عن الأنقاب أن اثبتوا، وسار بأهل المسجد إلى الأنقاب، فانهزم المغيرون وولوا الأدبار، ولحقهم المسلمون على إبلهم حتى (ذي حسى)، فوجدوا الردء هناك، وقد نفخوا الانحاء ، وربطوها بالجبال، ودفعوها بأرجلهم في وجه إبل المسلمين، فنفرت الإبل ورجعت بالمسلمين إلى المدينة

[1] ذي الحُسى : موقع قرب المدينة.

، فأرسل المنافقون إلى إخوانهم في (ذي القصة) بالخبر، فأسرعوا إليهم، وحضر أبو بكر ليلته، ثم خرج في آخر الليل ماشياً، وعلى الميمنة النعمان بن مقّرن، وعلى الميسرة عبد الله بن مقرن، وعلى الساقة سويد بن مقرن، فلما أصبح الصباح لم يشعر المنافقون إلا والمسلمون يعجلون فيهم السيف. فلما كانت ضحوة ذلك النهار ولّى المنافقون الأدبار، ووصل المسلمون إلى (ذي القصة)، ترك أبو بكر النعمان بن مقرن في عدد من المسلمين، ورجع هو بالناس إلى المدينة.

ارتفعت معنويات المسلمين في هذا النصر، وثبت مسلمو القبائل على دينهم، وجاء نصر آخر إذ وصلت إلى المسلمين أموال الصدقات من عدة جهات، فقد جاء صفوان بن صفوان بصدقات بني عمرو وذلك في أول الليل من جهة النقب الذي عليه سعد بن أبي وقاص. وجاء عدي بن حاتم الطائي في آخر الليل بصدقات قومه من جهة النقب الذي عليه عبد الله بن مسعود، وكان ذلك بعد مسير جيش أسامة ابن زيد بشهرين كاملين، ثم كان النصر الثالث إذ لم تمض عشرة أيام حتى رجع جيش أسامة غانماً ظافراً، فاستخلف أبو بكر أسامة بن زيد على المدينة، وقال له : أريحوا وأريحوا ظهركم .

وكان جند أسامة قد أخذوا الراحة المطلوبة، فعقد أبو بكر أحد عشر لواء لقتال المُرْتَدِّين

في كل أنحاء الجزيرة العربية وأبرزهم :

1- خالد بن الوليد : وأرسله إلى طليحة بن خويلد الأسدي الذى ارتد : ثم عاد إلى الإسلام، وبايع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان قد استخلف، ورجع طليحة إلى دار قومه وبقي فيها حتى خرج مجاهداً إلى العراق، وقد أبلى بلاء حسناً في الفتوحات.

فإذا فرغ منه سار إلى مالك بن نويرة اليربوعي التميمي وهو فارس شاعر، أسلم، وولاه رسول الله صدقات قومه، وعند وفاة رسول الله ا ضطرب أمره وفرق ما جمع من صدقات في قومه، وقيل ارتد، قتله ضرار بن الأزور بأمر خالد بن الوليد أثناء حروب المرتدين. بالبطاح) وهو منزل لبني يربوع، وقيل ماء في ديار بني أسد بن خزيمة، وتقع جنوب وادي الرقة في بعض الأودية المتجهة إليه من الجنوب .

2- عكرمة بن أبي جهل : وأرسله إلى مسيلمة الكذاب الحنفيفي اليمامة.

3- شرحبيل بن حَسنة : وأرسله دعماً إلى عكرمة بن أبي جهل في اليمامة.

4- عمرو بن العاص : وسيره إلى قبيلة قضاعة في الشمال.

5- خالد بن سعيد بن العاص : ووجهه إلى مشارف الشام.

6- حذيفة بن محصن : وأمره بالحركة إلى أهل دَبا.

خالد بن الوليد وطليحة الدجال

وبعد أن قاتل أبو بكر الصديق عبس وذبيان (بالأبرق) من أرض (الرَّبذة) وهزمهم، اتجه قسم منهم إلى (البزاخة)، وهي ماء لبني أسد، وهناك طليحة بن خويلد الأسدي، فلما عقد أبو بكر الألوية، طلب من خالد أن يسير إلى أرض طيء لتنخذل طيء وعبس وذبيان، وأظهر أن أبا بكر سيتجه إلى خيبر ومن هناك سيرفد خالداً في بلاد طيء.

سار خالد بن الوليد إلى بلاد طيء ولكن عدي بن حاتم طلب من خالد أن يمهله ثلاثة أيام ليكسب إليه قومه ففعل، ومن بلاد طيء، نزل خالد إلى (بزاخة)، وقتلت طليعته (عكاشة بن محصن) (وثابت بن أقرم)،

ولما التقى الجماعة هزم (عيينة بن حصن) مع قومه فزارة، فانفصل عن القوم، وفر طليحة بعدها نحو بلاد الشام، وكان طليحة قد ارتد في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم فارسل إليه ضرار بن الأزور، فنزل المرتدون في (سميراء) وبدأ عددهم بالتناقص،

وفي هذه الأثناء توفي رسول الله ﷺ ، فزاد عدد المرتدين وانضمت غطفان بإمرة عيينة بن حصن إلى بني أسد، وكانوا قد خالفوا طيئاً (عوف وجديلة وغوث)، فلما انضمت غطفان إلى أسد فر ضرار بن الأزور ببعض من معه إلى المدينة، وانفضت جموعه ، وعندما جاء خالد وهزم أعداءه في البزاخة أسلمت أسد وعامر وغطفان.

خالد بن الوليد ومسيلمة الكذاب

وبعد انتهاء خالد من بني أسد وأحلافهم اتجه بأمر من الخليفة إلى بني يربوع في تميم في البطاح وعليهم مالك بن نويرة. وكان الخلاف في بني تميم على أشده وقد جاءتهم سجاح بنت الحارث بن سويد بن غطفان من بني تميم، فرع بني يربوع، أم صادر: متنبئة كذابة، كانت في بني تغلب في الجزيرة، منتصرة، شاعرة، جاءت من الجزيرة فتبعها بنو تميم، وسارت بهم إلى بني حنيفة، فالتقت بمسيلمة وتزوجت به، ثم رجعت إلى الجزيرة. بعد مقتل مسليمة، وأقامت بالبصرة وتوفيت في خلافة معاوية رضي الله عنه عام 55 هـ، وصلى عليها والي البصرة سمرة بن جندب.

فوادعها من وادعها، وفر من وجهها من فر. وسارت بعد ذلك إلى اليمامة فكان أمر مسيلمة قد قوي، فخافها مسيلمة فاستأمنها، فأمنته، وتزوجها وبقيت عنده ثلاثة أيام ثم رجعت إلى أرض قومها، وكانت قد تنبأت مثل مسيلمة، وسار معها عدد من وجهاء بني تميم، وكانت قد صالحت مسيلمة على نصف غلات اليمامة ... وعندما عادت إلى الجزيرة وجاء المسلمون أسلمت وحسن إسلامها.

ولما عادت سجاح إلى الجزيرة، تحير بنو تميم الذين وادعوها، وندموا على ما كان منهم، ولم يلبثوا طويلاً حتى وصلت إليهم جيوش خالد بن الوليد، فعندما جيء برؤسائهم إلى خالد، جادلهم، وشهد جماعة على بني يربوع أنهم لم يؤذنوا فقتلهم .

معركة اليمامة

ولما سمع مسيلمة بقدوم خالد عسكر بمكان يقال له عقرباء في طرف اليمامة، والريف وراء ظهورهم، وندب الناس وحثهم، فحشد له أهل اليمامة، وجعل على مجنبتي جيشه المحكم بن الطفيل ونهار الرجال بن عنفوة، وكان الرجال صديقه الذي شهد له كذباً أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إنه أشرك معه مسيلمة في الأمر، وقرب خالد وقد جعل على المقدمة شرحبيل بن حسنة وعلى المجنبتين زيد بن الخطاب وأبا حذيفة، وقد مرت المقدمة بالليل بنحو من أربعين –وقيل ستين– فارساً عليهم مجاعة بن مرارة، وكان قد ذهب لأخذ ثأر له من بني تميم وبني عامر وهو راجع إلى قومه فأخذوهم، فلما جيء بهم إلى خالد قال لهم: "ماذا تقولون يا بني حنيفة؟"، قالوا: "نقول منا نبي ومنكم نبي"، فقتلهم إلا واحداً اسمه سارية بن عامر، فقال له: "أيها الرجل إن كنت تريد بهذه القرية غداً خيراً، أو شراً فاستبق هذا الرجل –يعني مجاعة بن مرارة–"، فاستبقاه خالد مقيداً وجعله في الخيمة مع امرأته، وقال: "استوصي به خيراً".

وتقدم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كثيب يشرف على اليمامة، وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس، والعرب على راياتها، فاصطدم المسلمون والكفار فكانت جولة، وانهزمت الأعراب حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد وقتل زيد بن الخطاب الرجال بن عنفوة لعنه الله، ثم تذامر الصحابة بينهم، وقال ثابت بن قيس: "بئس ما عودتم أقرانكم"، فنادوا من كل جانب، فخلصت إليهم ثلة من المهاجرين والأنصار، وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يعهد مثله، وجعل الصحابة يتواصون بينهم ويقولون: "يا أصحاب سورة البقرة بطل السحر اليوم"، وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحنط وتكفن، فلم يزل ثابتاً حتى قُتل هناك، وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة: "نخشى أن نؤتى من قبلك؟"، فقال: "بئس حامل القرآن أنا إذاً"، وقال زيد بن الخطاب: "أيها الناس عضوا على أضراسكم واضربوا في عدوكم وامضوا قدماً"، وقال: "والله لا أتكلم اليوم حتى يهزمهم الله، وألقى الله فأكلمه بحجتي"، فقتل شهيداً –رضي الله عنه– وقال أبوحذيفة: "يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال"، وحملوا عليهم وحمل خالد بن الوليد وجعل يترقب أن يصل إلى مسيلمة فيقتله، ثم وقف بين الصفين ودعا إلى البراز وقال أنا ابن الوليد العود، أنا ابن عامر وزيد، وجعل لا يبرز له أحد إلا قتله.

ودارت رحى المسلمين ثم اقترب من مسيلمة فعرض عليه الرجوع إلى الحق فجعل شيطانه يلوي عنقه لا يقبل من خالد شيء، فانصرف عنه خالد، وميز خالد المهاجرين من الأنصار من الأعراب، وجعل كل بني أب على رايتهم يقاتلون تحتها حتى يعرف الناس من أين يأتون، وصبر الصحابة في هذا الموطن صبراً لم يعهد مثله، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوهم حتى فتح الله عليهم، وولى الكفار الأدبار، واتبعونهم يقتلونهم حتى ألجؤوهم إلى حديقة الموت، وقد أشار عليهم المحكم بن الطفيل – لعنه الله – بدخولها فدخلوها وفيها مسيلمة الكذاب عدو الله – لعنه الله –. وأدرك عبد الرحمن بن أبي بكر المحكم بن الطفيل فرماه بسهم في عنقه وهو يخطب فقتله، وأغلقت الحديقة عليهم، وأحاط بهم الصحابة، وقال البراء بن مالك: "يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الـ حديقة"، فاحتملوه فوق الدروع، ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق سورها، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه، ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها يقتلون من فيها من المرتدة من أهل اليمامة حتى خلصوا إلى مسيلمة –لعنه الله– وإذا هو واقف في فرجة في جدار كأنه جمل أورق، وهو لا يعقل من الغيظ .

وكان إذا اعتراه شيطانه يخرج الزبد من شدقيه، فتقدم إليه وحشي بن حرب مولى جبير بن مطعم –قاتل حمزة بن عبد المطلب– فرماه بحربته فأصابه، وخرجت من الجانب الآخر، وسارع إليه أبو دجانة سماك بن خرشة فضربه بالسيف فسقط، فكان جملة من قتلوا في الحديقة وفي المعركة قريباً من عشرة آلاف مقاتل – وقيل أحد وعشرون ألفاً – وقتل من المسلمين ستمائة، وفيهم من سادات الصحابة وأعيان الناس.

وخرج خالد وتبعه مجاعة بن مرارة يرسف في قيوده، فجعل يريه القتلى ليعرف مسيلمة، فمروا بالرجال بن عنفوة، فقال له خالد: "أهذا هو؟"، قال: "لا والله، هذا خير منه، هذا الرجال بن عنفوة"، ثم مروا برجل أفطس الأنف أصفر فقال: "هذا صاحبكم؟"، قال: "نعم"، قال خالد: "قبحكم الله على أتباعكم هذا".

ثم بعث خالد الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبي، ثم عزم خالد على غزو الحصون، ولم يكن بقي فيها إلا النساء والصبيان والشيوخ الكبار، فخدعه مجاعة بن مرارة فقال إنها ملأى رجالاً ومقاتلة فهلم فصالحني عنها، فصالحه خالد لما رأى بالمسلمين من الجهد، وقد كلوا من كثرة الحروب والقتال، فصالحه خالد على الذهب والفضة والسلاح وربع ا لسبي، فلما فرغا فتحت الحصون فإذا ليس فيها إلا النساء والصبيان، فقال خالد لمجاعة: "ويحك خدعتني"، قال: "قومي ولم أستطع إلا ما صنعت"، ودعاهم خالد إلى الإسلام، فأسلموا عن آخرهم، ورجعوا إلى الحق، ورد عليهم خالد بعض ما كان أخذ من السبي، وساق الباقين إلى الصديق، وقد تسرى علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – بجارية منهم، وهي أم ابنه محمد الذي يقال له محمد بن الحنفية –رحمه الله– وكانت هذه الموقعة في آخر السنة الحادية عشر من الهجرة وأول السنة الثانية عشر من الهجرة النبوية الشريفة.

وفي عمان ظهر لقيط بن مالك الأزدي، وغلب عليها، واضطر جيفر وعباد الإلتجاء إلى الجبال وعلى سواحل البحر، وأرسل جيفر إلى أبي بكر الصديق يستنجده، فبعث أبو بكر حذيفة بن محصن إلى عمان وعرفجة بن هرثمة إلى مهرة، وأوصاهما إذا التقيا أن يبتدئا بعمان، وإذا اقتربا منها راسلا جيفرا وعبادا، ثم أتبعهما بعكرمة بن أبي جهل الذي كانت وجهته اليمامة، فلما هزم طلب من الخليفة أن يسير بمن معه إلى عمان، ونصر الله المسلمين وأيدهم وخذل الكافرين وهزمهم.

معركة اليرموك ..بين

سياسة خالد بن الوليد وبطولاته

قبيل المعركة :

أولى أبوبكر الصديق إمارة جيش المسلمين لخالد بن الوليد ليواجهوا جيش الروم الذي بلغ مائتي ألف مقاتل وأربعين ألفاً، فوقف خالد بجيش المسلمين خاطباً: (إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم، وتعالوا نتعاون الإمارة، فيكون أحدنا اليوم أميراً والآخر غداً، والآخر بعد غد، حتى يتأمر كلكم).

كان الجيشان متقابلان في أرض ضيقة ، والكل يخشى الآخر فالمسلمون راعهم الأعداد الهائلة لعدوهم وقد ظهر ذلك بقوة في مراسلات قائد الجيوش الإسلامية أبو عبيدة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهم ، فقال في خطابه الأول بعد انسحابه من حمص ودمشق" أما بعد ...أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله أن الروم نفرت إلى المسلمين براً وبحراً ...وجاءونا وهم نحو أربعمائة ألف رجل ... حتى يقدم علينا من قبل أمير المؤمنين المدد لنا ، فالعجل العجل يا أمير المؤمنين بالرجال بعد الرجال ، وإلا فاحتسب أنفس المسلمين إن هم أقاموا ، ودينهم منهم إن هم تفرقوا ،فقد جاءهم مالا قبل لهم به إلا أن يمدهم الله بملائكته أو يأتيهم بغياث من قبله ، والسلام عليك " .

وقد عقد اجتماع طارئ بالمدينة المنورة بمجرد وصول الكتاب ، كان اجتماع أشبه باستدعاء البرلمانات في عصرنا الحديث لمناقشة الوضع العسكري الخطير إلى أقصى حدود الخطورة والذي تعلن معه الحكومات في عصرنا حالة التأهب القصوى وحالة الطوارئ بالبلاد ، فاستدعى أمير المؤمنين عمر أهل العقد والحل من المهاجرين والأنصار ،

فقرأ الخليفة خطاب القائد العسكري للجيوش الإسلامية بنفسه ، وصعق الاجتماع ، ووصل الأمر بالحاضرين أن بكى أكثرهم وتضرعوا إلى الله بالنصر ودفع البلاء ، مشفقين على إخوانهم ، وتقدم بعضهم باقتراح وضع أمام الخليفة " يا أمير المؤمنين ابعثنا إلى إخواننا وأقر علينا أميراً ترضاه ، أو سر بنا أنت ..." .

يقول حامل خطاب أبو عبيدة عبدالله بن قرط وقد أظهر المهاجرين والأنصار بالاجتماع الشفقة على إخوانهم " ولم أر أحداً أكثر جزعاً من عبدالرحمن بن عوف ولا أكثر مقالة : سر بنا يا أمير المؤمنين فانك لو قدمت الشام لقد شدد الله قلوب المؤمنين وأرعب قلوب الكافرين " .

وقال الواقدي بكتابه (فتوح الشام ج1/ص178) : " فلما سمع عمر بن الخطاب كلام عبد الرحمن بن عوف ونظر إلى إشفاق المسلمين وجزعهم على أخوانهم اقبل على عبدالله وقال يا بن قرط من المقدم على عساكر الروم فقلت خمسة بطارقة أحدهم ابن أخت الملك هرقل وهو قورين والديرجان وقناطير وجيرجير وصلبانهم تحت صليب ماهان الأرمني وهو الملك على الجميع وجبلة بن الايهم الغساني مقدم على ستين ألف فارس من العرب المتنصرة فاسترجع عمر وقال لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

ثم قرأ عمر " يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون " ثم قال ما تشيرون به علي رحمكم الله تعالى فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ابشروا رحمكم الله تعالى فان هذه الوقعة يكون فيها آية من آيات الله تعالى يختبر بها عباده المؤمنين لينظر أفعالهم وصبرهم فمن صبر واحتسب كان عند الله من الصابرين ، واعلموا أن هذه الوقعة هي التي ذكرها لي رسول الله صلى الله عليه وسلم التي يبقى ذكرها إلى الأبد هذه الدائرة المهلكة، فقال العباس : علي من هي يا أبن أخي ؟ ، فقال يا عماه علي من كفر بالله واتخذ معه ولدا فثقوا بنصر الله عز وجل، ثم قال علي لعمر: يا أمير المؤمنين اكتب إلى عاملك أبي عبيدة كتابا وأعلمه فيه ان نصر الله خير له من غوثنا ونجدتنا فيوشك انه في أمر عظيم، فقام عمر ورقى المنبر وخطب خطبة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وذكر فضل الجهاد ثم نزل وصلى بالمسلمين " .

وفي نهاية الاجتماع كان رأي الأكثرية بقاء وإقامة عمر بالمدينة ويبعث المدد تلو المدد " ويكون ردءاً للمسلمين " .

وفي الوقت الذي أهاب الخليفة بالعرب من كل أنحاء الجزيرة العربية ، وكانت الرايات معقودة خارج المدينة كلما إجتمع حشد ساروا مسرعين نحو إخوانهم بالشام ، في الوقت الذي إتخذ إجراءاً معنوياً وتعبوياً عاجلاً ، فقد كلف رسول أبو عبيدة كرسول مباشر له لكتائب جيوش المسلمين وقال له : " إذا قدمت على المسلمين فسر في صفوفهم وقف على كل أهل راية منهم وقل لهم إنك رسولي إليهم ، وقل لهم : عمر يقرئكم السلام ويقول لكم يا أهل الإسلام أصدقوا اللقاء وشدوا عليهم شد الليوث واضربوا هاماتهم بالسيوف ، وليكونوا عليكم أهون من الذر ، فإنا قد كنا علمنا أنكم عليهم منصورون ، فلا يهولنكم كثرة عدوكم ..." .

كما أرسل كتاباً طويلاً لأبي عبيدة قال فيه : " وأن ربنا المحمود ...حيث بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق وأعزه بالنصر ونصره بالرعب على عدوه ...فلا يهولنك كثرة ما جاء منهم ... ولا توحشك قلة المسلمين فإن الله معك وليس قليلاً من كان الله معه " .

وقد تألم عمر من بعض كتاب أبو عبيدة وقال : " وقد فهمت مقالتك ، احتسب أنفس المسلمين إن هم أقاموا ودينهم إن هم تفرقوا ...إلا أن يمدهم الله بملائكته ... ، وأيم الله لولا استثناؤك بهذا لكنت قد أسأت " .

ثم ذكر أبو عبيدة بما يلقاه الشهداء عند ربهم ، وقال مذكراً المسلمين بأن لهم إحدى الحسنيين : " فإما ثواب الدنيا فالغنيمة والفتح وأما ثواب الآخرة فالمغفرة والجنة " ، ثم وصل إلى نهاية خطابه يشد من عزائم المسلمين : " واقرأ كتابي هذا على الناس ومرهم فليقاتلوا في سبيل الله وليصبروا ، ...فأما قولك إنه قد جاءهم مالا قبل لهم به ، فإن لا يكن لكم بهم قبل فإن الله لهم قبلا ، ولم يزل ربنا عليهم مقتدرا، ولو كنا إنما نقاتل الناس بحولنا وقوتنا وكثرتنا لهيهات ما قد أبادونا وأهلكونا ، ولكن نتوكل على الله ...وإنكم منصورون إن شاء الله على كل حال ،...واصبروا وصابروا ورابطوا " .

لقد إتخذ عمر ثلاث قرارات مهمة الأول طلب المدد بالسرعة القصوى وإرساله نحو أبو عبيدة ، الثاني : إرسال رسول يبلغ رايات المسلمين وكتائب الجيش راية راية برسالة محددة ، حيث دخل المدد متوازياً مع دخول رسول عمر ، ثالثاً : إلى جانب ذلك حملة معنوية تعبوية دينية برسالته إلى أبو عبيدة .

لقد كان أمير المؤمنين عمر وعلي رضي الله عنه موقنين بالنصر ، وكمن لديهم علم وخبر عن هذه الموقعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلنا أن جيش المسلمين كانوا قلقين من كثرة جيش الروم والذي كان يفوق التصور، ماعدا خالد بن الوليد الذي كان يشارك عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم الرأي .فكان رأيه قوياً مدوياً حين قال : " أرى والله إن كنا إنما نقاتل بالكثرة والقوة ، هم أكثر منا وأقوى علينا وما لنا بهم إذن طاقة ، وإن كنا إنما نقاتلهم بالله وبالله ، فما أن جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعاً أنها تغني عنهم شيئاً " .

يرى الكاتب (محمود شاكر) أن ميدان المعركة في جزء من حوران في القسم الغربي منه ، وهو سهل متموج منبسط يبلغ متوسط ارتفاعه 500- 750 متر في الشمال 750 م وفي الجنوب 400 م ، وينحدر من الشمال إلى الجنوب الغربي ببطء ، كما ينحدر من الشرق قرب جبل حوران الذي يسمى حاليا جبل الدروز نحو الغرب حتى الوصول إلى منطقة الجولان حيث يجري وادي الرقاد الذي يفصل بين المنطقتين .

وتتألف صخور السهل من صبات لابيَّة من البازلت ،وتبدو الصخور معراة على ضفاف الأودية إذ تنجرف التربة ، وهو ما يمكن ملاحظته بوضوح قرب بحيرة مزيريب الحالية وكذلك على وادي اليرموك .

ويقول الكاتب (محمود شاكر) إن حوران تقع بين خطي عرض 32،20و33،10 شمالاً ولذا فهي ضمن نطاق المنطقة المعتدلة الدفيئة، وحيث أنها قرب البحر المتوسط فإنها تقع ضمن مناخه أيضاً الذي يمتاز بحرارة مرتفعة صيفاً مع جفاف و اعتدال بالشتاء مع أمطار غزيرة نسبياً ، ويرى أن مياه حوران تتجمع في أودية تصب في النهاية إلى نهر اليرموك الذي يبلغ طوله 57كم ، ويفصل بين حوض نهر اليرموك وحوض نهر الأعرج مجموعة من التلال البركانية ، ولعل أشهر الأودية التي تغذي نهر اليرموك هو وادي الرقاد الذي يبدأ من من سفوح جبل الشيخ ويتجه جنوباً ماراً بشرق القنيطرة ، حيث يبدأ بالتعمق حيث يتخذ شكل إخدود عميق حتى يتصل باليرموك إلى الشرق من الواقوصة وترتفع حافاته وضفافه بين 130م –470م ،وكذلك العديد من الأودية التي تغذي نهر اليرموك كوادي العلان ووادي الهرير ، ووادي الزيدي والأشعري والشلالة وغيرها .

ويحيط بمنطقة حوران مجموعة من الصخور البركا نية من ثلاث جهات الشرق والشمال والغرب ، ففي الشرق منها يرتفع جبل حوران المؤلف من عدد من المخاريط البركانية ، وفي الشمال الشرقي توجد وعرة اللجاة ، في حين تمتد العيد من التلال والعتبات في الشمال لتفصل بين سهل حوران وحوضة دمشق ، وفي الغرب توجد منطقة الجولان ذات الصخور.

هذه المنطقة التي أشاربها أبوسفيان الأموي دلت على خبرته العريضة بتلك الأصقاع التي كان يجوبها بين بلاد الروم والفرس أثناء سفاراته لكسرى وقيصر على رأس وفود قريش أو إبان قيادته لتجارة قريش في الجاهلية على إمتداد عشرات السنين .وقد أفاد المسلمين من هذه المنطقة كمنطقة عسكرية صالحة للمسلمين لخوض معركة هي غير متكافئة بتاتاً من حيث موازين القوى للجيشين المتقابلين ، لقد كان الجيش البيزنطي يقوم برحلة مطاردة لجيش المسلمين المنسحب من حمص فدمشق فالجابية حيث اختار الأرض المناسبة له في المعركة في حين وجد الروم أنفسهم مجبرين على مقابلة المسلمين مخدوعين بكثرة عددهم وما ظنوه من وهن قد أصاب الجيش الإسلامي المنسحب .

ويرى (محمود شاكر) أن هناك مجموعة من العوامل الجغرافية المساعدة للجيش الإسلامي :

1) انحدار الأرض من الشرق إلى الغرب ولهذا فجيش المسلمين ينحدر إلى أسفل وهو يقاتل بينما الجندي البيزنطي يعيقه عن القتال صعود الأرض باتجاه عدوه .

2) مع الفجر تكون الشمس في وجه الروم مما يؤثر على أعينهم وهي خلف المسلمين مما يعطيهم القدرة على المناورة أكثر وبيسر .ومع أن الغروب يكون في غير صالح المسلمين ، إلا أن نشاط الـ جيشين يكون قد اقترب من النهاية .حيث علا التعب المقاتلين من الطرفين .

3) مكان الروم قليل التلال ، أما المسلمون فقد جعلوا تل السمرة الذي يرتفع 650 م في وسط صفهم الأمامي بحيث تكون القيادة فيه لتتمكن من الإشراف على المعركة منه ، ويحتشد فيه الجند حتى أطلق عليه تل الجموع .كان الموقع قليل الصخور بحيث يسمح لخيول المسلمين بالمناورة .في حين يقع صخور كبيرة خلف فرسان الروم مما يعيق فرارهم وتحركاتهم أمام خيل المسلمين .

4) إن المنطقة الجنوبية الغربية مفتوحة للمسلمين لتلقي المدد والإتصالات مع المدينة المنورة دون أن يتمكن الروم من قطعها .

5) جعل المسلمين بحيرة المزيريب خافهم لما يحتاجون إليه من مياه الشرب .خاصة حيث النساء والأحمال .

6) إن مجنبة المسلمين محمية بنهر اليرموك الذي لا يمكن لعدوهم قطعه أو الإلتفاف حوله كما يصعب الالتفاف عليهم من الخلف من جهة دمشق نظراً لكثرة الصخور البركانية هناك .

7)يمكن للمسلمين حصر الروم بين نهر اليرموك وروافده .

وهو ما استبشر به المسلمون حين رأوا منعة موقعهم وحصر الروم في هذا الموقع .

الأيام التي سبقت المعركة :

وصل المسلمين إلى أرض المعركة واختاروا الأرض المناسبة لهم ولحق بهم البيزنطيين (الروم) ، وكانت أعداد البيزنطيين هائلة ، ألقت الرعب بقلوب من رآهم (ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا الى اليرموك فنزلوا بدير يقال له دير الجبل وهو بالقرب من الرمادة والجولان وجعلوا بينهم وبين عسكر المسلمين ثلاثة فراسخ طولا وعرضا فلما تكاملت الجيوش باليرموك أشرفت سوابق الخيل على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان جبلة بن الايهم في المقدمة في ستين ألف فارس من العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام وهم على مقدمة ماهان فلما نظر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى كثرة جيوش الروم قالوا لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، قال عطية بن عامر: فوالله ما شبهت عساكر اليرموك

إلا كالجراد المنتشر اذا سد بكثرته الوادي . قال: ونظرت الى المسلمين قد ظهر منهم القلق وهم لا يفترون عن قول لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وأبو عبيدة رضي الله عنه يقول :(ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) ، قال : وأخذ المسلمون أهبتهم، ودعا الامير أبو عبيدة بجواسيسه من المعاهدين وأمرهم أن يدخلوا عساكر الروم يجسون له خبر القوم وعددهم وعديدهم وسلاحهم وقال أبو عبيدة رضي الله عنه: أنا أرجو من الله تعالى أن يجعلهم غنيمة لنا)(الواقدي ، ج1/ص166) وأقام المسلمون باليرموك وهم مستعدون لقتال عدوهم كأنهم ينتظرون وعدا وعدوا به ، وقد تقابل المعسكران عدة أيام دون قتال ؛ حيث يقول الواقدي : " فلما نزل ماهان بعساكره بإزاء المسلمين على نهر اليرموك أقام اياما لا يقاتل ولا يثير حربا " .

ويعزى تأخير ماهان عن الإقدام على الهجوم المباشر على معسكر المسلمين إلى أن رسولا ورد عليه من الإمبراطور البيزنطي هرقل (هركليوس) يقول له : " لا تنجز الحرب بينك وبين المسلمين حتى نبعث اليهم رسولا ونعدهم منا كل سنة بمال كثير وهدايا لصاحبهم عمر بن الخطاب ولكل أمير منهم ويكون لهم من الجابية الى الحجاز فلما وصل الرسول الى ماهان قال هيهات هيهات أن كانوا يجيبون الى ذلك أبدا،

فقال له جرجير: وهو من بعض ملوك الجيش وما عليك في هذا الذي ذكره الملك هرقل من المشقة، فقال ماهان : اخرج أنت إليهم وادع منهم رجلا عاقلا وخاطبه بالذي سمعت واجتهد في ذلك " .

طلب جرجير مقابلة أحد كبار قادة المسلمين ، فقابله أبوعبيدة وكان كل منهم على فرسه ، ووجد جرجير في منطق أبوعبيدة قوة لم يكن يقدرها من قبل فلم يكن قادراً على مواصلة عرضه ، فالتفت إلى مرافقه وقال: " يا بهيل الملك هرقل كأنه أعرف بهؤلاء العرب منا، ثم لوى رأس جواده ورجع الى ماهان واخبره بما قال أبو عبيدة فقال له ماهان دعوتهم الى الموعد فقال لا وحق المسيح اني لم أفاتحه في شيء من ذلك لكن أبعث لهم بعض العرب المتنصرة ..." .

وقد بعث إليهم ملك الغساسنة جبلة بن الأيهم ، وما وجد من رسول أبو عبيدة (عبادة بن الصامت الأنصاري) إلا كما وجد جرجير من أبوعبيدة، فعاد أدراجه .

كانت خطة هرقل ضرب العرب بالعرب باعتبار نصارى العرب هم من جنس العرب المسلمين ، وأن الصدمة الأولى يجب أن يتحملها العرب النصارى ، حتى إذا تعب المسلمين من القتال واصل الروم الحرب ليستأصلوا بقية المسلمين .

أفاد المسلمين فوائد عظيمة من تمهل ماهان ملك أرمينية وعدم البدء بالقتال مباشرة حسب نصيحة هرقل ، وقد كان هرقل مقتنعاً منذ رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم التي دعاه فيها إلى الإسلام ، من أن دين محمد سيصل إلى سوريا وسيخرج النفوذ البيزنطي نهائياً من بلاد الشام .

التجسس والمفاوضات :

في هذه الأيام القليلة التي فصلت بين اتخاذ الجيشين لمواقعهما قبالة بعضهما البعض وبين الالتحام بالمعركة حاول جاهداً قائد جيش الروم أن يتجنب القتال ، وذلك من خلال المفاوضات ، وربما كان إلى جانب تنفيذه لوصية هركليوس إمبراطور بيزنطة (الروم) ، فقد أراد ماهان بحنكة العسكري المجرب أن يكسب الوقت من أجل جمع معلومات وافية وكافية عن عدوه ، لتقييم الموقف العسكري بشكل دقيق وصحيح ، وكما كان ماهان فقد كان أبو عبيدة وخالد بن الوليد ، حيث أرسل أبو عبيدة جواسيسه داخل معسكر الروم .

كانت العرب النصارى مادة جيدة لعمليات التجسس بين الطرفين ، فجواسيس الروم ادعوا بأنهم من المسلمين الجدد ، ودخلوا بسهولة داخل معسكر المسلمين ، بينما المسلمون الجدد لم يكونوا قد اشتهروا بإسلامهم ، ولذا دخلوا في معسكر الروم باعتبارهم لا يزالون على دينهم السابق وولائهم للروم .وكل من الطرفين يدرس قوة خصمه .

وبينما هم كذلك إذ تقدمت جيوش نصارى العرب بالشام بقيادة الملك الغساني جبلة بن الأيهم ، فصاح صائح المسلمين بالاستعداد لقتالهم ، فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه : " اصبروا رحمكم الله ولا تعجلوا حتى اكيدهم بمكيدة يهلكون بها وقال لأبي عبيدة رضي الله عنه أيها الامير ان القوم قد استعانوا علينا بالعرب المتنصرة وهم اضعاف عددنا وان نحن نقاتلهم بجمعنا كله كان ذلك وهناً منا وضعفا وأريد أن أبعث لهم رسولا من بني عمهم يكلمهم في شأن ردهم عنا فان فعلوا كان ذلك كسرا لهم وللمشركين ووهنا عظيما وان أبوا الا الحرب والقتال خرج منا نفر يسير يردونهم على أعقابهم بعزة الله عز وجل قال فتعجب أبو عبيدة رضي الله عنه وقال يا أبا سليمان افعل ما تريد " .

أرسل خالد بن الوليد أربعة من زعماء الأنصار الذين هم من أبناء عمومة الغساسنة لمقابلة الملك الغساني الذي يدور بفلك النفوذ البيزنطي ، وينفذ قرارات هرقل بعيداً عن أية سيادة لدولته التابعة للقسطنطينية ، وكان خالد بن الوليد يهدف من وراء ذلك أن يقنع الملك الغساني ويؤثر عليه بسبب صلة الرحم التي تربطه بأبناء عمومته الأوس والخزرج ، ولكن هيهات أن يكون له قرار ، فقد عرض عليه الوفد الإسلام ولكنه رفض قائلاً: " وأنتم يا معاشر الاوس والخزرج رضيتم لانفسكم أمرا ، ونحن رضينا لانفسنا أمرا لكم دينكم ولنا ديننا " ، فقال له الانصاري : " إن كنت لا تحب ان تفارق دينك الذي انت عليه فاعتزل عن قتالنا لتنظر من تكون العاقبة والغلبة، فان كانت لنا وأردت الدخول في ديننا قبلناك وكنت منا وأخانا وان أقمت على دينك قنعنا منك بالجزية وأقررناك على بلدك وعلى مواطن كثيرة لآبائك وأجدادك ، فقال جبلة: أخشى أن تركت حربكم وقتالكم وكانت الدائرة للقوم لا آمن أن يتقووا على بلدي لان الروم لا ترضى مني الا أن أكون مقاتلا لكم وقد رأسوني على جميع العرب وأنا لو دخلت دينكم كنت دنيئا ولا اتبع " ، فقال الانصاري : " فان أبيت ما عرضناه عليك فان ظفرنا بك قتلناك

فاعتزل عنا وع ن سيوفنا فانها تفلق الهام وتبري العظام فتكون الوقعة بغيرك احب الينا من الوقعة بك وبمن معك ، قال: وكانت الانصار يريدون بهذا الكلام تخويفه وترغيبه كي ينصرف عنهم وجبلة يأبى ذلك، فقال: وحق المسيح والصليب لا بد أن أقاتل عن الروم ولو كان لجميع الاهل والقرابة، فقال له قيس بن سعد: يا جبلة أبيت الا أن يحتوي الشيطان على قلبك فيهوى بك في النار فتكون من الهالكين وانما أتينا لندعوك الى دين الاسلام لان رحمك متصلة برحمنا فان أبيت فستعاين منا حربا شديدا يشيب فيه الطفل الصغير" **[فتوح الشام ج1/ص171]** .

ثم رجعوا إلى الأمير أبي عبيدة وخالد بن الوليد رضي الله عنه وأعلموهما بمقالة جبلة وأنه ما يريد الا القتال فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه : " أبعده الله تعالى فوعيش عاش فيه رسول الله ﷺ سيد المرسلين لينظرن منا جبلة ما ينظر ثم قال خالد بن الوليد رضي الله عنه اعلموا معاشر المسلمين أن القوم في ستين ألف فارس من العرب المتنصرة وهم حزب الشيطان ونحن ثلاثون ألف فارس من حزب الرحمن ونريد أن نلقي هذا الجمع الكبير فان قاتلنا جبلة بجمعنا كله كان ذلك وهنا منا ولكن ينتدب منا أبطال ورجال الى قتال هؤلاء العرب المتنصرة " ، فقال أبو سفيان صخر بن حرب لله درك يا أبا سليمان فلقد أصبت الرأي ،

وقال : أبوعبيدة فاصنع ما تريد وخذ من الجيش ما أحببت فقال اني قد رأيت من الرأي أن نندب من جيشنا ثلاثين فارسا فيلقى كل واحد ألفي فارس من العرب المتنصرة قال الواقدي : فلم يبق أحد من المسلمين الا عجب من مقالة خالد بن الوليد رضي الله عنه وظنوا أنه يمزح بمقالته وكان أول من خاطبه في ذلك أبو سفيان صخر بن حرب وقال : يا ابن الوليد هذا كلام منك جد أو هزل ، فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: لا وعيش عاش فيه رسول الله ﷺ ما قلت الا جدا. فقال أبو سفيان : فتكون مخالفا لامر الله تعالى ظالما لنفسك وما أظن أن لك في هذه المقالة مساعدا ولو قاتل الرجل منا مائتين كان ذلك أسهل من قولك يقاتل الرجل منا ألفين وأن الله عز وجل رحيم بعباده فرض رجلا منا تلقى الستين ألف فارس فما يجيبك أحد الى ذلك وان أجابك رجل لما قلته فانه ظالم لنفسه معين على قتله " .

فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه : " يا أبا سفيان كنت شجاعا في الجاهلية فلا تكن جبانا في الاسلام وانظر لمن أنتخب من رجال المسلمين وأبطال الموحدين فانك اذا رأيتهم علمت أنهم رجال قد وهبوا أنفسهم لله عز وجل وما يريدون بقتالهم غير الله تعالى ومن علم الله عز وجل ذلك من ضميره كان حقا على الله أن ينصره ولو سلك مفظعات النيران، فقال أبو سفيان: يا أبا سليمان الامر كما ذكرت وما أردت بقولي الا شفقة على المسلمين فاذا قد صح عزمك على ذلك فاجعل القوم ستين رجلا ليقاتل الرجل منهم ألف فارس من العرب المتنصرة ، فقال الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه : نعم ما أشار به أبو سفيان يا أبا سليمان ، فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: والله يا أيها الامير ما أردت بفعلي هذا الا مكيدة لعدونا لانهم اذا رجعوا الى أصحابهم منهزمين بقوة الله عز وجل ويقولون لهم من لقيكم فيقولون لقينا ثلاثون رجلا يداخلهم الرعب منا ويعلم ماهان أن جيشنا كفء له، فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: أن الامر كما ذكرت إلا أنه إذا كان ستون رجلا منا يكونون عصبة ومعينا بعضهم بعضا ،

فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: أنا أنتدب من المسلمين رجالا أعرف صبرهم وقرارهم واقدامهم في الحرب وأعرض عليهم هذه المقالة فان أحبوا لقاء الله ورغبوا في ثواب الله عز وجل فإنهم يستتجيبون إلى ذلك وأن احبوا الحياة الدنيا والبقاء فيها ولم يكن فيهم من تطيب نفسه للموت فما بخالد الا أن يبذل مهجته لله عز وجل والله الموفق لما يحبه ويرضاه "

[فتوح الشام ج:1 ص:171-172] .

المعركة الأولى مع نصارى العرب :

واختار خالد بن الوليد ستون قارساً من المهاجرين وأكثرهم من الأنصار ،فقال أحدهم ان خالداَ اليوم يقدم ذكر الانصار ويؤخر المهاجرين من ولد المغيرة بن قصي ويوشك انه يختبرهم أو يقدمهم للمهالك ويشفق على ولد المغيرة ، قال الواقدي فلما سمع خالد بن الوليد رضي الله عنه ذلك من قولهم أقبل يخطو بجواده حتى توسط جميع الانصار وقال لهم والله يا أولاد عامر ما دعوتكم الا لما ارتضيته منكم وحسن يقيني بكم وبايمانكم فأنتم ممن رسخ الايمان في قلبه فقالوا انك صادق في قولك يا أبا سليمان ثم صافحه القوم ...

فلما انتخب خالد بن الوليد من فرسان المسلمين ستين رجلا كل واحد منهم يلقى جيشا بنفسه قال لهم خالد بن الوليد رضي الله عنه: يا أنصار الله ما تقولون في الحملة معي على هذا الجيش الذي قد أتى يريد حربكم وقتالكم فان كان لكم صبر وأيدكم الله بنصره مع صبركم وهزمتم هؤلاء العرب المتنصرة فاعلموا أنكم لجيش الروم غالبون فاذا هزمتم هؤلاء العرب وقع الرعب في قلوبهم فينقلبون خاسرين .

فقالوا: يا أبا سليمان افعل بنا ما تريد والق ما تشاء فوالله لنقاتلن أعداءنا قتال من ينصر دين الله ونتوكل على الله تعالى وقوته ونبذل في طلب الآخرة مهجنا فجزاهم خالد بن الوليد رضي الله عنه خيرا وكذلك الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه وقال لهم تأهبوا رحمكم الله وخذوا أسلحتكم وعدتكم وليكن قتالكم بالسيف ولا يأخذ أحد منكم رمحا فان الرمح خوان ربما زاغ عن الطعن ولا تأخذوا السهام فانها منايا منها المخطىء ومنها المصيب والسيف والحجف عليهما تدور دوائر الحرب واركبوا خيولكم السبق النواجي ولا يركب الرجل منكم الا جواده الذي يصبر به وتواعدوا أن الملتقى عند قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم

قال فقدموا على أهاليهم وودعوهم فأما ضرار بن الازور فانه عمد الى خيمته ليستعد بما يريد ويسلم على أخته خولة رضي الله عنها بنت الازور فلما لبس لامة حربه قالت له أخته خولة يا أخي مالي أراك تودعني وداع من أيقن بالفراق اخبرني ماذا عزمت عليه فأخبرها ضرار بما قد عزم عليه وانه يريد ان يلقى العدو مع خالد بن الوليد رضي الله عنه فبكت خولة وقالت يا أخي افعل ما تريد أن تفعل والق عدوك وانت موقن بالله تبارك وتعالى فانه لكم ناصر وان عدوك لا يقرب اليك أجلا بعيدا ولا يبعد عنك أجلا قريبا فان حدث عليك حدث أو لحقك من عدوك نائبة فوالله العظيم شأنه لا هدأت خولة على الارض أو تأخذ بثأرك فبكى ضرار بن الازور لبكائها واعد آلة الحرب وكذلك الستون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يناموا طول ليلتهم حتى ودعوا أولادهم وأهاليهم وباتوا في بكاء وتضرع وهم يسألون الله تعالى النصر على الاعداء الى أن أصبح الصباح فصلى بهم الامير أبو عبيدة رضي الله عنه صلاة الفجر فلما فرغ من صلاته كان أول من أسرع الى الخرج خالد بن الوليد رضي الله عنه وحرض أصحابه على الخروج وهو ينشد ويقول :

هبوا جميع اخوتي أرواحا نحو العدو نبتغي الكفاحا

[فتوح الشام ج1/ص174] .

قال : وودع المسلمون الستون أصحابهم وساروا بأجمعهم وخالد بن الوليد رضي الله عنه في أوساطهم كأنه أسد قد احتوشته الأسود ولم يزالوا حتى وقفوا بازاء العرب المتنصرة ، ونظرت العرب المتنصرة الى أصحاب رسول الله ﷺ وقد أقبلوا نحوهم وهم نفر يسير فظنوا أنهم رسل يطلبون الصلح والمواعدة فصاح جبلة بالعرب المتنصرة وحرضهم ليرهب المسلمين ونادى يا آل غسان أسرعوا الى نصرة الصليب وقاتلوا من كفر به فبادروا بالاجابة وأخذوا الاهبة للحرب ورفعوا الصليب واصطفوا للقتال وقد طلعت الشمس على لامة الحرب فلمع شعاعها على الحديد والزرد والبيض كأنها شعل نار ووقفوا يبصرون ما يصنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن قاربوا صلبان العرب المتنصرة ونادى خالد بن الوليد رضي الله عنه يا عبدة الصلبان ويا أعداء الرحمن هلموا الى الحرب والطعان فلما سمع جبلة كلام خالد رضي الله عنه علم أنهم ما خرجوا رسلا وانما خرجوا للقتال فخرج جبلة من بين أصحابه وقد اشتمل بلامة حربه وهو يقول:

أنا لمن عبدوا الصليب ومن به	نسطو على من عابنا بفعالنا
ولقد علونا بالمسيح وأمه	والحرب تعلم أنها ميراثنا
أنا خرجنا والصليب أمامنا	حتى تبددكم سيوف رجالنا

ثم قال جبلة من الصائح بنا والمستنهض لنا في قتالنا، فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه أنا فاخرج الى حومة الحرب، فقال جبلة: نحن قد رتبنا أمورنا لحربكم وقتالكم وأنتم تتربصون عن قتالنا فوحق المسيح لا أجبناكم إلى الصلح أبدا فارجعوا الى قومكم وأخبروهم إننا ما نريد إلا القتال، قال فأظهر خالد التعجب من قوله ، وقال له : يا جبلة أتظن أننا خرجنا رسلا اليك، فقال جبلة: أجل فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: لا تظن ذلك أبدا فوالله ما خرجنا الا لحربكم وقتالكم فان قلتم اننا شرذمة فإن الله ينصرنا عليكم، فقال جبلة: يا فتى قد غررت بنفسك وبقومك إذ خرجت الى قتالنا ونحن سادات غسان ولخم وجذام، فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: لا تظن ذلك واننا قليلون فقتالكم رجل منا لألف منكم وتخلف منا رجال أشهى إليهم الحرب من العطشان إلى الماء . ثم صاح جبلة بقومه يا آل غسان الحملة .

فلما سمعوا كلام سيدهم حملت الستون ألف فارس في وجه خالد بن الوليد والستين رجلا فثبت لهم أصحاب رسول الله ﷺ واشتبك الحرب بينهم فما كنت تسمع الا زئير الرجال وزمجرة الابطال ووقع السيف على البيض الصقال حتى ما ظن احد من المسلمين ولا من المشركين أن خالدا ومن معه ينجو منهم أحد، فبكى المسلمون وأخذهم القلق على أخوانهم وجعل بعضهم يقول لقد غرر خالد بن الوليد بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهلكهم والروم تقول أن جبلة أهلك هؤلاء القوم فهلاك العرب حاصل بأيدينا لا محالة ولم يزل القوم في الحرب والقتال حتى قامت الشمس في كبد السماء .

قال عبادة بن الصامت : فلله در خالد بن الوليد رضي الله عنه والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه والفضل بن العباس وضرار بن الازور وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضوان الله عليهم أجمعين لقد رأيت هؤلاء الستة قد قرنوا مناكبهم في الحرب وقام بعضهم بجنب بعض وهم لا يفترقون وزادت الحرب اشتعالا وخرقت الاسنة صدور الليوث حتى بلغت الى خزائن القلوب لانقطاع الآجال

ولم يزالوا في القتال الشديد الذي ما عليه من مزيد قال عبادة بن الصامت فحملت معهم وكنت في جملتهم وقلت يصيبني ما يصيبهم ونادى خالد بن الوليد وقال : " يا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ههنا المحشر وقد أعطى خالد القلب مناه " .

فلما حمى بينهم القتال حمل خالد بن الوليد وهاشم والمرقال وتكاثرت عليهم الرجال فلله در الزبير ابن العوام والفضل بن العباس وهم ينادون أفرجوا يا معاشر الكلاب وتباعدوا عن الاصحاب نحن الفرسان هذا الزبير بن العوام وأنا الفضل بن العباس أنا أبن عم رسول الله ﷺ قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : فوحق رسول الله ﷺ لقد أحصيت للفضل بن العباس عشرين حملة يحملها عن خالد بن الوليد حتى أزال عنه الرجال والابطال وحملوا على المشركين حملة عظيمة ولم يزالوا في القتال يومهم إلى أن جنحت الشمس إلى الغروب والمسلمون قد جهدهم القلق على إخوانهم .

أما الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه فانه صاح بالمسلمين وقال : يا أصحاب رسول الله ﷺ هلك خالد بن الوليد ومن معه لا محالة وذهبت فرسان المسلمن فاحملوا بارك الله فيكم لننظر ما كان من أخبار اخواننا فكل اجاب الى قوله واشارته الا أبا سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه فانه قال للامير أبي عبيدة رضي الله عنه : لا تفعل أيها الأمير فانه لا بد للقوم أن يتخلصوا ونرى ما يكون من أمرهم ، قال : فلم يلتفت أبو عبيدة رضي الله عنه الى كلامه وهم أن يحمل وقد أخذه القلق فبينما هو كذلك واذا جيش العرب المتنصرة منهزمون وأصوات الصحابة رضي الله عنهم قد ارتفعت، قال : وان خالد بن الوليد افتقد أصحابه الستين رجلا فلم يجد منهم الا عشرين فجعل يلطم على وجهه وهو يقول : " أهلكت المسلمين يا ابن الوليد فما عذرك غدا عند الرحمن وعند الامير عمر بن الخطاب رضي الله عنه ".

فبينما هو متحير في ذلك اذ أقبل عليه الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه وفرسان المسلمين وأبطال الموحدين فنظر أبو عبيدة رضي الله عنه الى خالد بن الوليد وما يصنع بنفسه وقد اشتغل عن متابعة المشركين فقال أبو عبيدة : يا أبا سليمان الحمد لله على نصر المسلمين ودمار المشركين فقال خالد بن الوليد اعلم أيها الأمير ان الله قد هزم الجيش ولكن أعقبتك الفرحة ترحة ، فقال أبو عبيدة رضي الله عنه : وكيف ذلك ، فقال خالد : أيها الامير فقدت أربعين رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم الزبير بن العوام ابن عمة رسول الله ﷺ وفيهم الفضل بن العباس وجعل خالد بن الوليد رضي الله عنه يسمي فرسان المسلمين واحدا بعد واحد حتى سمى أربعين رجلا فاسترجع أبو عبيدة رضي الله عنه ، وقال : لاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وقال لخالد : لا بد لعجبك يهلك المسلمون فقال سلامة بن الاحوص السلمي : أيها الامير دونك والمعركة فاطلب فيها أصحاب رسول الله ﷺ فان رأيتموهم والا فالقوم أسرى أو قد تبعوا المشركين .

فأمر أبو عبيدة فأتوا بهوادى النيران وكان الظلام قد اعتكر فافتقدوا المعركة بين القتلى فاذا قتل من العرب المتنصرة خمسة آلاف فارس وسيدان من ساداتهم وهما رفاعة بن مطعم الغساني والآخر شداد بن الأوس ووجدوا من قتل المسلمين عشرة رجال منهم اثنان من الأنصار؛ أحدهما عامر الأوسي والآخر سلمة الخزرجي ، فقال أبو عبيدة رضي الله عنه : يوشك أن بعض الصحابة قد تبع المشركين ، اللهم ائتنا بالفرج القريب ولا تفجعنا بابن عمة نبيك الزبير بن العوام ولا بابن عمه الفضل ابن العباس . فـ كم كان حب صحابة رسول الله عظيماً لأهل بيت النبي رضوان الله عليهم .

ثم قال أبو عبيدة : معاشر المسلمين من يقفو لنا أثر القوم ويتعرف خبر الصحابة وأجره على الله عز وجل فكان أول من أجابه خالد بن الوليد رضي الله عنه ، فقال له الأمير أبو عبيدة : لا تفعل يا أبا سليمان لأنك تعبت من شدة الحرب فقال خالد : والله لا يمضي في طلبهم غيري ثم غير جواده بفرس من خيول المسلمين .

وطلب آثار القوم وتبعه جماعة من المسلمين فما سار خالد بعيدا حتى سمع خالد التهليل والتكبير فأجابهم بمثله فأقبل القوم وفي أوائلهم الزبير بن العوام والفضل ابن العباس وهاشم والمرقال ، فلما نظر خالد اليهم فرح فرحا شديدا ورحب بهم وسلم عليهم ، وقال خالد بن الوليد رضي الله عنه للفضل بن العباس : يا ابن عم رسول الله ﷺ ما كان أمركم فقال يا أبا سليمان هزم الله المشركين وردهم على أدبارهم خائبين فتبعنا آثارهم وان رجالا منا أسروا فرجونا خلاصهم فلم نرهم ولا شك أنهم قتلوا ، فقال خالد رضي الله عنه : ان القوم في الاسر لا محالة فقال الزبير بن العوام من أين علمت ذلك يا أبا سليمان ، فقال خالد رضي الله عنه : انا لم نجد في المعركة غير عشرة رجال ونحن عشرون وأنتم خمسة وعشرون وقد أسر خمسة رجال لا محالة .

وكان الاسرى رافع بن عميرة ، وربيعة بن عامر ، وضرار بن الازور ، وعاصم بن عمرو ، ويزيد بن أبي سفيان فعظم ذلك على المسلمين ورجعوا الى أبي عبيدة رضي الله عنه فلما نظر الى الفضل بن العباس وإلى الزبير بن العوام والمرقال بن هاشم وقد رجعوا سالمين فرحين بما نصرهم الله على الكافرين سجد على قربوس سرجه شكرا لله تعالى فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه : معاشر المسلمين

لقد بذلت مهجتي أن أقتل في سبيل الله تعالى فلم أرزق الشهادة فمن قتل من المسلمين كان أجله قد حضر ومن أسر كان خلاصه على يدي ان شاء الله تعالى ، قال : وباتت الفرسان في فرح وسرور وبات الروم في نوح عظيم حين كسرت حامية عسكرهم .

وكتب أبو عبيدة الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما كتابا يقول فيه : " بسم الله الرحمن الرحيم الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أبي عبيدة عامر بن الجراح عامله سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه محمدﷺ وأعلم يا أمير المؤمنين أن كلب الروم هرقل قد استفز علينا كل من يحمل الصليب وقد سار القوم الينا كالجراد المنتشر وقد نزلنا باليرموك بالقر ب من أرض الرماة والخولان ... وفي مقدمتهم ستون ألف من العرب المنتصرة من غسان ولخم وجذام فأول من لقينا جبلة بن الايهم في ستين ألف فارس وأخرجنا اليه ستين رجلا فهزم الله تعالى المشركين على أيديهم وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم وقتل من أصحابنا عشرة ... ونحن على نية الحرب والقتال فلا تغفل عن المسلمين وأمدنا برجال من الموحدين ونحن نسأل الله تعالى أن ينصرنا وينصر الاسلام وأهله والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته " .

وصل الكتاب إلى عمر وقرأه عمر على صحابة رسول الله وزوده بتوجيهات ، وأرسله إلى أرض المعركة وهنا نجد إشكالاً بين روايتين الرواية السابقة التي جعلت خروج عبدالله بن قرط من الجابية إلى المدينة ووصوله محتماً سيكون بعد وصول الجيش إلى اليرموك ، وربما يكون الفارس حامل الرسالة أسرع من مسير الجيش ،على أننا نميل إلى أن عبدالله بن قرط سار إلى المدينة مرة واحدة ، سواء من الجابية أو من اليرموك ، وعلى أية حال لو عدنا إلى الرواية التي توحي أن وصول ابن قرط بعد معركة الستين من فرسان المسلمين مع الستين ألف من نصارى العرب ، فقد ودع ابن قرط عمر وقال يا أمير المؤمنين : ادع الله تعالى لي بالسلامة والسرعة في السير ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اللهم احمه وسلمه واطو له البعيد انك على كل شيء قدير .

قال عبدالله بن قرط ، وخرجت من المسجد من باب الحبشة فقلت في نفسي لقد أخطأت في الرأي إذ لم أسلم على قبر رسول الله ﷺ فما أدري أراه بعد اليوم أم لا قال عبد الله فقصدت حجرة رسول الله ﷺ وعائشة رضي الله عنها جالسة عند قبره وعلى بن ابي طالب كرم الله وجهه والعباس جالسان عند القبر والحسين في حجر علي والحسن في حجر العباس رضي الله عنه وهم يتلون سورة الانعام وعلي رضي الله عنه يتلو سورة هود فسلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال علي رضي الله عنه: يا ابن قرط عولت على المسير الى الشام. فقلت :نعم يا ابن عم رسول الله ﷺ وما أظن أن أصل اليهم الا والجيش قد التقى والحرب دائرة واذا أشرفت عليهم لا يرون معي مدادا ولا نجدة خشيت عليهم أن يهنوا ويجزعوا وكنت أحب أن أصل اليهم قبل التقائهم بعدوهم حتى أعظهم وأصبرهم، فقال علي رضي الله عنه: فما منعك أن تسأل عمر بن الخطاب أن يدعو لك أما علمت يا أبن قرط أن دعاءه لا يرد ولا يحجب وأن رسول الله ﷺ قال فيه : لو كان نبي ثان بعدي لكان عمر بن الخطاب ، أليس هو الذي يوافق حكمه حكم الكتاب حتى قال المصطفى (لو نزل من السماء إلى الأرض عذاب ما نجا منه إلا عمر بن الخطاب) أما علمت أن الله تعالى أنزل فيه آيات بينات أما هو الزاهد التقى أما هو العابد أما هو المشبه بنوح النبي فان كان هو قد دعا لك فقد قرن دعاؤه بالإجابة .

كان المدد يتتالى من اليمن والحجاز وسائر أمصار جزيرة العرب ، وقد وصل إلى المدينة جيش من اليمن (للجهاد وهم ستة آلاف يقدمهم جابر بن خول الربعي فترجلت ساداتهم وسلموا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأمرهم بالنزول فلما أقل الظلام جاء ألف فارس من مكة والطائف ووادي نخلة وثقيف يقدمهم سعيد بن عامر وسلموا على عمر ونزلوا بأزاء أهل اليمن فلما كان يوم الأحد حمل عمر ضعيفهم وزودهم وعقد راية حمراء على قناة تامة وسلمها الى سعيد بن عامر) .

وساروا بعد وصية عمر لقائد الجيش وهم في الطريق قابلوا بطريرق عمان (حاكم عمان عاصمة الأردن حالياً وبطرير ق هو لقب إداري بيزنطي) وهو قادم نحو اليرموك للانضمام إلى جيش الروم باليرموك ، وفي الوقت الذي كان أبو عبيدة ينتظر جيش سعيد بن عامر وقد أتته الجواسيس بخبر جيش بطريق عمان خشي على المدد القادم من المدينة بقيادة سعيد بن عامر أن يفاجئه جيش عمان ، فأرسل ابوعبيدة الزبير بن العوام والفضل بن العباس اللذان وصلا مع بداية المعركة حيث تمت إبادة أربعة ألاف جندي من جيش عمان ، وأسر ألفاً، وتمكن الزبير بن العوام من قتل بطريق عمان بسيفه .

وصل الخبر إلى أبو عبيدة بوصول المدد وبسحق جيش عمان ، فسجد شكرا لله عز وجل ، وأمر بالألف أسير فضربت أعناقهم والروم ينظرون إليهم قال قطبة بن سويد وأخبرت الروم أنه لم ينج أحد من جيش عمان .

كانت مسيرة الأحداث تحطم معنويات الروم بكل ساعة فالمدد لم ينقطع وجيش نصارى العرب قد هزم شر هزيمة وخلال ساعات نهار طويلة تمكن الستون من أشد مقاتلي الأرض قوة وصلابة وإيماناً من قتل وإبادة أعداد لا تحصى من جيش جبلة بن الأيهم من النصارى ، ورغم أن الأحداث كانت كبيرة ، والعالم مقدم خلال أيام قليلة قادمة – حينئذ – على تغيير موازين القوى ، ورغم كل الاستقراء الخاطئ لها قبل بدء المعركة ، فإننا حتى لو لم نقبل المبالغة التي تقول أن قتلى جيش جبلة وصل إلى أربعة أخماسه فإننا يمكن لنا أن نتصور كيف تكون خسارة جيش قاتل أكثر من عشر ساعات دون تحقيق أهدافه ، وإلا أين ذهب أيضاً جيش الروم بعد المعركة وهو يزيد عن **240000**مقاتل . لقد كانت تلك الأيام أيام حاسمة في تاريخ البشرية ، حين أذن الله سبحانه بعلو وانتصار الحق على الباطل.

لم يكن معسكر المسلمين مستبشراً كثيراً في بداية الأمر ، فالخطب عظيم إلى الدرجة أن أعد الجميع أنفسهم لكل الاحتمالات، ولكن جملة من الأحداث غيرت من نفسيات المجاهدين المسلمين بقيادة أمين الأمة أبوعبيدة وسيف الله المسلول خالد بن الوليد وهي ما يلي :

1) بشرى علي بن أبي طالب وتأكيد عمر بن الخطاب رضي الله عنهما لهم بالنصر (وإنكم منصورون على كل حال) إلى جانب دعاء عمر وعلي والعباس وزوجات رسول الله رضوان الله عليهم.
2) نصر جيش الستين من أشد مقاتلي الأرض ضراوة وحباً للجهاد والشهادة على ستون ألف من نصارى العرب ، قبيل معركة اليرموك بقليل .
3) النصر الذي حققه بتوفيق من الله ثم عامل الصدفة فقد كان سعيد بن عامر يعرف الطريق جيداً إلى أرض المعركة ولكنه ضل الطريق واتجه دون قصد نحو عمان بجيشه الذي يبلغ سبعة آلاف مقاتل والتقى بجيش عمان البيزنطي ،كل ذلك أعطى المسلمون باليرموك كماً هائلاً من الحماس والإحساس المؤكد بنصر الله .

4) قيام أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بإعدام ألف أسير من أسرى جيش البيزنطيين تحت ضرورة الحرب ، فالمعركة لم تبدأ بعد ، وسيشكلون ثقلاً على الجيش الإسلامي الذي لن يستطيع فرز كتيبة حراسة لألف من هؤلاء الأسرى ، والذين في أي لحظة يمكن أن يشكلوا خطراً داهماً على مؤخرة معسكر المسلمين ، وقد شكلت هذه الخطوة ربما عملية دعم معنوي أدى إلى استهانة الجندي المسلم بعدوه، كما شكلت هزيمة معنوية لجيش العدو الذي رغم كثرته فهو لم يستطع أن يتحرك لحماية رجاله .

5) وعلى العكس تماماً فقد كان أسر خمسة من جيش الستون قد أغم أبو عبيدة وخالد بن الوليد رضي الله عنهم كيف لا وكل واحد منهم بألف رجل كما أثبتت التجربة بقتال الأمس ، قال الواقدي : " أما أسر الخمسة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتم لفقدهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أكثرهم غما أبو عبيدة بن الجراح وأقبل على البكاء والتضرع يدعو لمن أسر بالخلاص وأما الخمسة فإنهم مثلوا بين يدي ماهان لعنه الله تعالى وغضب عليه، فلما نظر إليهم استحقر شأنهم وقال لجبلة بن الأيهم من هؤلاء

قال: أيها الملك هؤلاء قوم من جيش المسلمين وقد كانوا ستين رجلا فقتلت اكثرهم وأسرت هؤلاء وما بقي في عسكرهم من تخاف غائلته الارجل واحد وهو الذي يثبتهم ويرمي بهم كل المرامي وهو الذي فتح أركة وتدمر وحوران وبصرى ودمشق وهو الذي كسر عساكر اجنادين وتبع توما وهربيس وقتلهم في مرج الديباج " ، يعني خالد بن الوليد . وعلى أية حال فقد كانت حادثة أسر الخمسة محفزاً للمسلمين بفكهم من الأسر حين كان المسلم الواحد يساوي أمم الأرض قاطبة .

وكان ماهان قد بث جواسيس من العرب النصارى بين جند المسلمين بحيث لا يعرفهم أحد إن كانوا من المسلمين الجدد أم هم من النصارى ، وبدأوا يعودون إلى معسكر ماهان فرادى بتقاريرهم عن أوضاع معسكر المسلمين من الداخل ومعنويات جندهم فقال أحد الجواسيس العرب لماهان : " جئتك من عند قوم يقومون الليل كله، يصلون ويصومون النهار، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، رهبان بالليل فرسان بالنهار، لو يسرق مَلِكُهم لقطعوا يده، ولو زنا لرجموه؛ لإيثارهم الحق، واتباعهم إياه على الهوى " .

فلما انتهى الرجل العربي من كلامه قال القائد الرومي: " لئن كان هؤلاء القوم كما تزعم، وكما ذكرت لبطنِ الأرض خير من ظهرها لمن يريد قتالهم. " .

وهكذا كانت تقارير بقية الجواسيس تعطي رأياً واحداً هو أن المعركة القادمة لن تكون كأي معركة يمكن للعوامل العسكرية وحدها أن تحسمها ، ولهذا فقد أرسل ماهان قائد جيش الروم الملك جرجير يطلب من المسلمين مقابلة مع خالد بن الوليد ، فوافق أبو عبيدة ، وقال أبو عبيدة امض : " يا أبا سليمان سلمك الله تعالى فلعل الله تعالى أن يهديهم أو يدعونا للصلح وأداء الجزية فتحقن الدماء على يدك فحقن دم رجل واحد أحب إلى الله تعالى من أهل الشرك جميعا " ، فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه : أنا أطلب من الله تعالى العون ، ثم وثب خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى خيمته ولبس خفين حجازيين وتعمم بعمامة سوداء وشد وسطه بمنطقة من الأديم وتقلد سيفه الذي استلبه من مسيلمة الكذاب يوم اليمامة وأمر عبده عمان أن يأخذ قبته الحمراء وكانت من الأديم الطائفي وفيها شمعات من الذهب الأحمر وحليتها من الفضة البيضاء وكان خالد قد أشتراها من إمرأة ميسرة بن مسروق العبسي بثلثمائة دينار فحملها على بغل وركب خالد جواده فلما هم بالمسير قال له أبو عبيدة : يا ابا سليمان خذ معك رجالا من المسلمين يكونون لك عونا، فقال خالد: أيها الأمير أحب ذلك ولكن لا إكراه في الدين وليس لي عليهم طاعة فأمر من شئت فلما سمع المسلمون كلام خالد بن الوليد رضي الله عنه قال معاذ بن جبل: " يا أبا سليمان انك من أهل الفضل ولو أمرتنا بأمر إمتثلناه لأنك سائر في طاعة الله تعالى ورسوله".

واستركب معه مائة فارس من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين ولم يزل خالد ينتخب مثل هؤلاء السادات رضي الله عنهم حتى كمل منهم مائة فارس كل فارس منهم يرد جيشا وحده فاخذوا زينتهم واشتملوا بلباس الحرب وتوشحوا بالأبراد وتعمموا بالعمائم وتمنطقوا بالخناجر وتقلدوا بالسيوف وركبوا الخيل العتاق وسار خالد بن الوليد رضي الله عنه وعن يمينه معاذ بن جبل وعن شماله المقداد بن الأسود الكندي والمائة فارس محدقون به .

ثم نصب خالد خيمته الحمراء بين المعسكرين ، وشق صفوف جند الروم نحو مقر القائد البيزنطي ، وتحادثا محادثة طويلة فيها من الشجون السياسية والتهديد العسكري المبطن والعلني وبها مناقشات دينية ، واتسمت المناقشات بالإحترام الشديد .

وبعد الترحيب الرسمي قال خالد بن الوليد _ ولم يكن بين خالد وماهان ترجمان يبلغ عنهما بل كانا يتحدثان كلاهما- فقال خالد : يا ماهان اني اكره أن أبداك بالكلام فتكلم أنت بما تريد فاني لست ابالي بما تتكلم ولكل كلام جواب فان شئت فتكلم وان شئت بدأتك قال ماهان أنا أبدؤكم الحمد لله الذي جعل سيدنا الروح المسيح كلمته وملكنا أفضل الملوك وأمتنا خير الامم قال فعظم ذلك على خالد بن الوليد وقطع خالد كلامه فقال الترجمان لا تقطع كلام الملك يا أخا العرب واستعمل حسن الادب ، فأبى خالد أن يسكت بل قال خالد : " الحمد لله الذي جعلنا نؤمن بنبينا ونبيكم وجميع الانبياء وجعل أميرنا الذي وليناه أمورنا كبعضنا لو زعم أنه يملك علينا لعزلناه فلسنا نرى أن له فضلا علينا الا أن يكون أتقى لله عز وجل منا وقد جعل الله أمتنا تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وتقر بالذنب وتستغفر منه وتعبد الله تعالى وحده لا شريك له " .

فاصفر وجه ماهان وسكت قليلا ، ثم قال : " الحمد لله الذي أبلانا وأحسن البلاء الينا وعافانا من الفقر ونصرنا على الامم وأعزنا ومنعنا من الضيم ولسنا فيما خولنا الله فيه من نعيم الدنيا بطرين ولا باغين على الناس وقد كان يا معاشر العرب طائفة منكم يغشوننا ويلتمسون نائلنا ورفدنا وجوائزنا ونحن نحسن إليهم ونكرمهم ونكرم ضعيفهم ونعظم قدرهم ونتفضل عليهم ونفي لهم بالوعد وكنا نظن أن العرب كلها تعرف لنا ذلك من جميع القبائل وتشكرنا عليه لما أسدينا من عطايانا الجميلة لهم فما شعرنا حتى جئتمونا بالخيل والرجل وظننا أنكم تطلبون منا طلب إخوانكم فإذا انتم على خلاف رأي أولئك جئتم تقتلون الرجال وتسبون النساء وتغنمون الأموال وتهدمون الأطلال وتطلبون أن تخرجونا من أرضنا وتغلبونا على بلادنا وقد طلب منا ذلك من كان قبلكم ممن هو أكثر منكم عددا وأكثر أموالا وسلاحا وظهرا فرددناهم خائفين وجلين خائبين بين قتيل وجريح وطريد وطريح فأول ما فعلنا ذلك بملك فارس فرده الله على عقبيه بالخيبة والذل ، وكذلك فعلنا بملك الترك وملك الجرامقة وغيرهم ،

وانتم لم يكن في أمة من الأمم أصغر منكم مكانا ولا أحقر شانا لأنكم أهل الشعر والوبر والبؤس والشقاء وإنكم مع ذلك تظلمون في بلادكم وبلادنا و حوالينا أمة كثيرة العدد وشوكتنا شديدة وعصبتنا عظيمة وإنما قبلتم علينا لأنكم خرجتم من جدوبة الأرض وقحط المطر فانجليتم إلى بلادنا وأفسدتم كل الفساد وركبتم مراكب ليست كمراكبكم ولبستم ثيابا ليست كثيابكم وتمتعتم ببنات الروم البيض الاوانس فجعلتموهن خدما لكم واكلتم طعاما ليس كطعامكم وملئت أيديكم من الذهب والفضة والمتاع الفاخر ولقد لقيناكم الآن ومعكم أموالنا وما غنمتموه من قومنا وأهل ديننا وقد تركناه لكم لا نطالبكم به ولا ننازعكم فيه ولا نعتب عليكم فيما تقدم من فعالكم، والآن فاخرجوا من بلادنا فان أبيتم الانصراف عنا عزمنا عليكم عزمة فنترككم كأمس الدابر وان جنحتم للصلح نأمر لكل واحد من عسكركم بمائة دينار وثوب ولاميركم أبي عبيدة بألف دينار ولخليفتكم عمر بن الخطاب بعشرة آلاف دينار وعلى أنكم تحلفون لنا أن لا تعودوا الى حربنا " .

كان ماهان يرغب تارة ويرهب اخرى وخالد مطرق لا يتكلم حتى فرغ ماهان من كلامه فقال خالد ان الملك قد تكلم فأحسن وسمعنا كلامه ونتكلم ويسمع كلامنا ثم قال خالد بن الوليد رضي الله عنه : الحمد لله الذي لا اله الا هو ، فلما سمع ماهان ذلك مد يده الى السماء وقال : نعم ما قلت يا عربي فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المرتضى ونبيه المجتبى صلى الله عليه وسلم ، فقال ماهان ما أدري أمحمد رسول الله أم لا ولعله كما تقول وتزعم وتذكر، فقال خالد رضي الله عنه حسب الرجل دينه ، ثم قال أفضل الساعات وخيرها الساعات التي يطلع فيها الله رب العالمين .

فالتفت ماهان إلى قومه وقال بلسانه انه رجل عاقل يتكلم بالحكمة فقال خالد ما الذي قلت لقومك فأخبره بمقالته فقال خالد أن كنت أوتيت العقل فالله تعالى المحمود على ذلك وقد سمعنا نبينا محمداﷺ يقول : لما خلق الله تعالى العقل وصوره وقدره قال أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فادبر فقال الله تعالى وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أحب إلي منك بك تنال طاعتي وتدخل جنتي ، فقال ماهان اذا كنت بهذا العقل والفهم فلم جئت بهؤلاء معك قال خالد بن الوليد رضي الله عنه جئت بهم لأشاورهم ، قال ماهان :

وأنت مع جودة عقلك وحسن رأيك وبصيرتك تحتاج إلى مشورة غيرك قال خالد نعم بهذا أمر الله عز وجل نبينا محمدا ﷺ فقال الله تعالى في كتابه العزيز وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله وقال ﷺ : ما ضاع امرؤ عرف قدره ولا ضاع مسلم استشار فأنا وان كنت ذا رأي وعقل كما تزعم وكما بلغك فاني لا استغني عن رأي ذي رأي ومشورة أصحابي ، قال ماهان : وهل في عسكركم من له رأي مثل رأيك وحزم مثل حزمك ، قال : نعم ان في عسكرنا اكثر من الف فارس لا يستغني عن رأيهم ولا عن مشورتهم فقال له ماهان : ما كنا نظن ذلك فيكم وانما كان يبلغنا عنكم انكم طماعون جهال لا عقول لكم يغير بعضكم على بعض وينهب بعضكم أموال بعض .

فقال له خالد رضي الله عنه : ذلك كان شأن أكثرنا حتى بعث الله عز وجل فينا نبينا محمدا ﷺ فهدانا لرشدنا وعرفنا سبيلنا وفهمنا الخير من الشر والهدى من الضلال فقال ماهان يا خالد انك قد أعجبتني بما أراه من رأيك وبصيرتك وقد أحببت أن اؤاخيك فتكون أخي وخليلي ، فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه : وافرحاه ان تمم الله مقالتك فتكون إذا سعيدا ولا نفترق فقال ماهان : وكيف ذلك ؟ قال خالد : تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله الذي بشر به عيسى ابن مريم فاذا فعلت ذلك كنت أخي وكنت أخاك وتكون خليلي وأكون خليلك ولا نفترق إلا لأمر يحدث فقال ماهان:

أما ما دعوتني اليه من الترك لديني والدخول في دينكم فمالي إلى ذلك من سبيل فقال خالد بن الوليد: وكذلك أيضا لا سبيل إلى مؤاخاتي لك وأنت مقيم على دينك دين الضلال قال ماهان: أريد أن ألقى الحشمة بيني وبينك وأكلمك كلام الاخ لاخيه فأجبني عن كلامي الذي دعوتك اليه حتى أسمع ما تقول ، قال خالد : أما بعد فانك تعلم أن الذي ذكرته مما فيه قومك من الغنى والعز ومنع الحريم والظهور على الاعداء والتمكن في البلاد فنحن عارفون به وكل ما ذكرته من إنعامكم على جيرانكم من العرب فقد عرفنا ولكن انما فعلتم ذلك ابقاء لنعمتكم ونظرا منكم لأنفسكم وذراريكم وزيادة لكم في مالكم وعزا لكم فتستكثرو ن جموعكم وتلقون الشوكة على من أرادكم وأما ما ذكرته من فقرنا ورعينا الإبل والشاة فما منا من لم يرع وأكثرنا رعاة ومن رعى منا كان له الفضل على من لم يرع وأما قولك بأننا أهل فقر وفاقة وبؤس وشقاء فنحن لا ننكر ذلك وانما ذلك من أجل انا معاشر العرب أنزلنا الله تعالى منزلا ليس فيه أنهار ولا أشجار ولا زرع الا قليل وكنا أهل جاهلية جهلاء لا يملك الرجل منا إلا فرسه وسيفه وأباعره وشياهه ويأكل قوينا ضعيفنا ولا يأمن بعضنا بعضا الا في الاربع الاشهر الحرم نعبد دون الله الأصنام والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ونحن عليها مكبون ولها حاملون فبينما نحن كذلك ...

حتى بعث الله لنا نبيا نعرف حسبه ونسبه هاديا مهديا رسولا نبيا واماما تقيا اظهر الاسلام بدعوته ودحض المشركين بكلمته جاءنا بقرآن مبين وصراط مستقيم ختم الله تعالى به النبيين وأمرنا بعباده رب العالمين نعبده ولا نشرك به شيئا ولا نتخذ من دونه وليا ولا نجعل لربنا صاحبة ولا ولدا لا شريك له ولا ضد ولا ند له ولا نسجد للشمس ولا للقمر ولا للنور ولا للنار ولا للصليب ولا للقربان ولا نسجد الا لله وحده لا شريك له ونقر بنبوة نبينا محمد ﷺ على آله وصحبه انزل الله عليه كلامه الذي هدانا به مولانا فاستجبنا له واطعنا أمره فكان مما أمرنا به ان نجاهد من لا يدين بديننا ولا يقول بقولنا ممن كفر بالله واتخذ معه شريكا جل ربنا وتعالى عن ذلك لا تأخذه سنة ولا نوم فمن اتبعنا كان اخانا وصار له ما لنا وعليه ما علينا ومن ابى الاسلام كانت عليه الجزية يؤديها الينا عن يد وهو صاغر فإذا أداها حقن بها ماله ودمه وولده ومن أبى الاسلام وأن يؤدي الجزية فالسيف حكم بيننا وبينه حتى يقضي الله جل جلاله بحكمه وهو خير الحاكمين ونحن ندعوكم إلى هذه الخصال الثلاث ليس غيرها إما أن تقولوا نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أو الجزية في كل عام على كل محتلم من الرجال وليس على من لم يبلغ الحلم جزية ولا على امرأة ولا على راهب منقطع في صومعته .

قال ماهان : فهل بعد قول لا اله الا اله غير هذا ، فقال خالد : نعم أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتحجوا البيت الحرام وتجاهدوا من كفر بالله تعالى وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتوالوا في الله تعالى وتعادوا في الله فان أبيتم ذلك فالحرب بيننا وبينكم حتى يورث الله أرضه من يشاء والعاقبة للمتقين .

قال ماهان فافعل ما تشاء فاننا لا نرجع عن ديننا ولا نؤدي الجزية وأما ما ذكرت من ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده فلقد صدقت فانها لم تكن لنا ولا لكم بل كانت لقوم غيرنا وغيركم فقاتلناهم عليها حتى ملكناها منهم والحرب بيننا وبينكم فابرزوا على اسم الله تعالى فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه : ما أنتم بأشهى منا الى الحرب وكأني بحيوشكم وقد انهزمت والنصر يقدمنا وتساق أنت والحبل في عنقك ذليلا حقيرا وتقدم بين يدي عمر بن الخطاب فيضرب عنقك .

فلما سمع ماهان كلام خالد بن الوليد غضب غضبا شديدا قال فلما نظرت البطارقة والحجاب والهرقلية والقياصرة الى غضب ماهان هموا بقتل خالد الا انهم صبروا ينظرون امره .

فقال ماهان لخالد وقد اسشاظ غضبا: وحق المسيح لأحضرن أصحابك الخمسة الأسارى وأضربن أعناقهم وأنت تنظر اليهم فقال له خالد اسمع ما اقول لك يا ماهان انت أقل وأذل وأحقر من ذلك واعلم ان هؤلاء الذين في يدك هم منا ونحن منهم فوحق الدعوة المستجابة وحق بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وخلافة عمر بن الخطاب لئن قتلتهم لاقتلنك بسيفي هذا ويقتل كل رجل منا من قومك بعددهم وزيادة ثم وثب خالد رضي الله عنه من موضعه وانتضى سيفه من غمده وفعل أصحاب رسول الله ﷺ كفعله وهو يقول لا اله الا الله محمد رسول الله وجردوا سيوفهم وهاجوا كالجمال أو كالسباع الضواري واستقتلوا وأيقنوا بالشهادة في ذلك المكان .

ويروي الواقدي عن مسلم بن عبد الحميد عن جده رافع بن مازن قال كنت مع خالد يوم سرنا الى ماهان وكنا في سرادقة فلما جذبنا السيوف وهممنا بالقوم وما في اعيننا من جيوش الروم شيء وقد ايقنا بالحشر من ذلك الموضع .. فلما رأى ماهان الحقيقة منا ومن خالد وتبين الموت في شفار سيوفنا نادى ماهان مهلا يا خالد لا تكن بهذه العجلة تهلك وأنا أعلم انك ما قلت ذلك القول الا انك رسول والرسول يحمل ولا يقتل

وأنا انما تكلمت بما تكلمت لاختبركم وانظر ما عندكم والآن فما أواخذك فارجع الى عسكرك واعزم على القتال حتى يعطي الله تعالى النصر لمن يشاء فلما سمع ذلك أغمد سيفه وقال : يا ماهان ما تصنع في هؤلاء الاسرى فقال ماهان أطلقهم كرامة لك وأخلي سبيلهم فيكونون عونا لك ولن تعجزونا في الحرب غدا ففرح خالد بذلك وأمر ماهان بتخلية أصحاب رسول الله ﷺ قال فاطلقوا من وثاقهم .

وهم خالد بالمسير فقال : ماهان يا خالد اني كنت أحب أن يصلح الامر بيني وبينكم واني أسألك حاجة فقال خالد سل ما تريده فقال أن قبتك هذه الحمراء قد أعجبتني واني أريد أن تهبها لي وانظر في عسكري ما أعجبك من شيء فأهبه لك فقال خالد والله لقد فرحتني اذ طلبت ما أملكه وهي موهوبة لك وأما ما عرضت علي من عسكرك فلا حاجة لي فيه فقال ماهان لله درك أنت تكرمت وأجملت فقال خالد رضي الله عنه وأنت أيضا قد تكرمت علينا بما صنعت من اطلاق أصحابي من الاسر ثم انثنى خارجا من عند ماهان وأصحابه من حوله وقدم له جواده فركبه وركب أصحابه أصحاب رسول الله ﷺ

وأمر ماهان أصحابه وحجابه أن يسيروا معهم حتى يبلغوهم قال ففعل القوم ذلك ووصل خالد وأصحابه الى الامير أبي عبيدة رضي الله عنهم أجمعين وسلموا عليه وفرح المسلمون بخلاص أصحاب رسول الله ﷺ وحدث خالد أبا عبيدة بكل ما جرى لهم ثم قال خالد وحق المنبر والروضة ما كان ماهان ليطلق لنا أصحابنا الا فزعا من سيوفنا .

التخطيط للمعركة :

عقد مـ اهان اجتماعاً لقادته وتبادلوا الإقتراحات حول المعركة غداً وكانت الاقتراحات أن يقاتل الروم في كل يوم بمأئة ألف مقاتل بينما يستريح الباقون ، أما الأقتراح الآخر وهو أن يدخل ماهان بكل قوته العسكرية التي تزيد عن ستة أضعاف قوة المسلمين دفعة واحدة ليحسم المعركة بوقت أسرع ، وهكذا استقر رأي ماهان ، فكتب رسالته الأخيرة إلى إمبراطوره هرقليوس في شمال سوريا يقول :

" فأرسلت إليهم فهيبتهم فلم يهابوا ، وأطمعتهم فلم يطمعوا ، وسألتهم الصلح فلم يقبلوا ... وقد ذعر منهم جندك ذعراً شديداً ، وقد خشيت أن يكون الفشل قد عمهم والرعب قد دخل في قلوبهم ... وقد جمعت أهل الرأي ... فاجتمع رأيهم على النهوض إليهم جميعاً في يوم واحد ثم لا ننازلهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، وقد أتاني آت في منامي فقال لي : لا تقاتل هؤلاء القوم فإنهم إذاً يهلكونك ، فلما انتبهت من منامي عبرت أنه من الشيطان ... فإن يكن من الشيطان فقد خسأته وإلا يكن فقد تبين لي الأمر ...ثم نصحه بالخروج إلى أقاصي بلاد الشام فإذا سمع بهزيمة جيشه فارض بقضاء الله ، واعلم أن الدنيا زائلة عنك " .

بينما أقبل خالد على أصحابه وهم عسكر الزحف وقال لهم إعلموا أن هؤلاء الكفرة الذين نصركم الله عليهم في المواطن الكثيرة قد حشدوا لكم جموع بلادهم واني دخلت الى عسكرهم ونظرت اليهم فكانهم النمل ولكنهم أصحاب عدة بلا قلوب ولا لهم من ينصرهم عليكم وهذه الوقعة بيننا وبينهم وقد أيقنا أن القتال في غداة غد وانتم أهل البأس والشدة فما عندكم رحمكم الله تعالى قال

فتكلم أصحاب خالد وقالوا أيها الامير القتال بغيتنا والقتل في سبيل الله تعالى مسرتنا ولا نزال نصبر لهم على الحرب والطعن والضرب حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ففرح خالد بقولهم وقال لهم وفقكم الله تعالى وأرشدكم .

وفي تلك الليلة أخذ كل من بمعسكر المسلمين عدته واهبته واستعد بآلة الحرب والقتال وباتوا فرحين بالجهاد والثواب وخائفين من العقاب فلما أصبح القوم ولاح الفجر أذن المؤذنون في عسكر المسلمين حتى ارتفعت لهم جلبة عظيمة بالتوحيد واسبغوا الوضوء لصلاتهم خلف أبي عبيدة فلما صلوا ركبوا خيولهم الى قتال عدوهم وعبوا صفوفهم للقتال .

وكانوا ثلاثة صفوف متلاصقة أول الصف لا يرى آخره وأقبل خالد بن الوليد على أبي عبيدة رضي الله عنه فقال له أبو عبيدة : وقال يا أبا سليمان قد وليتك على الخيل والرجل فول أمر الرجالة من شئت ، ولكن خالد بكل أدب مع أمين هذه الأمة أبو عبيدة قال : من كنت تجعل على ميمنتك ؟ قال أبو عبيدة : معاذ بن جبل ، فقال خالد أهل ذلك هو الرضا والثقة ،فوله إياها فأمر أبو عبيدة معاذا فوقف في الميمنة ، ثم قال خالد من كنت ستولي الميسرة ؟ قال أبو عبيدة غير واحد قال خالد فولّها قبَّاث بن أشيم إن رأيت ؟ فأمره أبو عبيدة فوقف بالميسرة . قال خالد : وأنا على الخيل ووَلِ على الرجالة من شئت .قال أبو عبيدة : أوليها إن شاء الله من لا يخاف نكوله ولا صدوره عند البأس ، أوليها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص . قال خالد: وفقت ورشدت . قال أبو عبيدة إنزل يا هاشم فأنت على الرجالة

وأنا معك .قال خالد إبعث إلى كل راية فمرهم أن يطيعوني .، فدعا ابو عبيدة الضحاك بن قيس فأمره بذلك ، فخرج الضحاك يسير في الناس ويقول لهم : أميركم أبا عبيدة يأمركم بطاعة خالد بن الوليد فيما أمركم به . ويقول الناس سمعنا وأطعنا .

أعاد خالد بن الوليد من جديد تنظيم الجيش الداخلي وجعل الجيش جيشاً واحداً ، ولعل الروايات هنا تختلف إختلافاً حادا فبعض الروايات تر ى أن خالداً قد جعل على الميسرة شرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان وميمنته لعمرو بن العاص ،بينما كلف أبو عبيدة بالقلب ومعه سعيد بن زيد أحد المبشرين العشرة بالجنة ، ولعل سبب إختلاف المؤرخين بأسماء القادة إنما يعود إلى الأختلاف بالأصل على سنة وقوع المعركة فهؤلاء هم الذين يرون أن المعركة وقعت سنة **13**للهجرة ، بينما الذين يرون الرأي السابق هم الذين يرون وقوع المعركة في العام الخامس عشر من الهجرة أي بعد فتح دمشق وانسحابهم منها .

ومهما يكن فقد ابتكر خالد بن الوليد تخطيطاً جديدا للمعركة (خرج خالد في تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك أبداً) وكان سبب ذلك أن عدد جيش العدو يبلغ ستة أضعاف عدد جيش المسلمين ، فقسم جيش المسلمين إلى **40** كردوساً كل كردوس يتكون من حوالي ألف رجل

، فوضع في القلب 18 كردوساً قاد كل كردوس رجال كعبدالرحمن بن أبي بكر وعياض بن غنم ، وعبدالرحمن بن خالد بن الوليد وسهيل بن عمرو وهاشم بن عتبة الذي تذكر الرواية أنه مع أبو عبيدة يقود الرجالة ، وصفوان بن أمية ، حبيب بن سلمة وغيرهم .أما الجناحان فيضم كل واحد منهم أحد عشر كردوساً كعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ومعاذ بن جبل وخالد بن سعيد وعبدالله بن قيس ، ومعاوية بن حديج ويزيد بن أبي سفيان والزبير بن العوام .

في حين قسم خالد بن الوليد فرسان المسلمين الذين يطلق عليهم بعض المؤرخين الحرس المتحرك والذين يبلغ عددهم حوالي ألفي فارس ، إلى كردوسين أحدهم بإمرة خال بن الوليد نفسه الذي هو المشرف العام على المعركة ويقود الآخر ضرار بن الأزور . ويقال أنه قسم الفرسان إلى أربعة فرق وعين على أحدها قيس بن هبيرة المرادي وقال له : " أنت فارس العرب ، وقلَّ من حضرها اليوم يعدلك عندي فاخرج معي في هذا الخيل " .

ولعل من أهم الشخصيات التي شهدت المعركة أبو ذر الغفاري ، وعمار بن ياسر والفضل بن العباس وعمرو بن معد يكرب أحد أبرز شخصيات العرب وفارس اليمن .

كان الروم قد إختاروا موقعهم وفق أوامر هرقل لقادة جيشه ، حين جاءهم كتابه يأمرهم بقوله : " اجتمعوا لهم ، وانزلوا بالروم منزلاً واسع العطن ، واسع المطّرد ، ضيق المهرب " .

وكانت خطة كارثية على هذا الجيش الظيم لأنه في حالة هزيمته سيؤدي إلى استئصاله وإبادته ، وهو ما جعل خبير الحرب عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وهو مشرف على موقع جيش الروم يقول قولته المشهورة : " أيها الناس أبشروا ، حصرت والله الروم وقلما جاء محصور بخير " .

كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يشحذ همم القادة وقال في إجتماعهم : " هلموا فإن هؤلاء قد تهيأوا وهذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها " .

فوافق جميع القادة الأربعة على دمج الجيوش الخمسة دمجاً تاماً حتى صار جيشاً واحداً ، ويرى أحمد عادل كمال في كتابه (الطريق إلى دمشق) أن الأمراء الذين بعثهم أبو بكر للشام على قيادة الجيوش أصبحوا يوم اليرموك هيئة إدارة عليا للميدان بدليل وجود أسماء أخرى لقيادات الميمنة والميسرة والمشاة وقال خالد في اجتماعهم : " إن عدوكم قد كثر وطغى وليس من التعبية أكثر في رأي العين من الكراديس " .

وفي صلاة الفجر قرأ أبو عبيدة وهو يؤم المسلمين سورة والفجر وليال عشر وكانت الآية (إن ربك لبا لمرصاد) وسورة والشمس وضحاها ، إستبشر المسلمين وقال أحدهم ليصبن الله عليهم سوط عذاب وليدمدمن عليهم كما دمدم على هذه القرون من قبلهم .

وما إن إنتهى أبو عبيدة من صلاته حتى التفت إلى المسلمين وقال أيها ألناس أبشروا فإني رأيت في ليلتي هذه فيما يرى النائم كأن رجالاً أتوني فحفوا بي و عليَّ ثياب بيض ، ثم دعوا لي رجالاً منكم أعرفهم ثم قالوا لنا ، أقدموا على عدوكم ولا تهابوهم فإنكم الأعلون ، وكأن مضينا إلى عسكر عدونا فما رأونا قاصدين إليهم انفرجوا لنا انفراج الرأس وجئنا حتى دخلنا عسكرهم وولوا مدبرين . فقال الناس أصلحك الله .. هذه بشرى من الله بشرك الله بخير .فقال أبو مرثد الخولاني ، وأنا أصلحك الله قد رأيت رؤيا إنها لبشرى من الله ، وإني قد رأيت في هذه الليلة ... كأنا خرجنا إلى عدونا فلما توقفنا صب الله عليهم من السماء طيراً بيضاً عظاماً لها مخالب كمخالب الأسد وهي تنقض من السماء انقضاض العقبان ، فإذا حازت بالرجل من المشركين ضربته ضربة يخر منها منقطعاً، وكأن الـ ناس يقولون أبشروا معاشر المسلمين فقد أيدكم الله عليهم بالملائكة . تباشر المسلمون بهذه الرؤيا وقال أبو عبيدة : وهذه والله بشرى من الله ، فحدثوا بهذه الرؤيا الناس فإن مثلها يشجع المسلم ويحسن ظنه وينشطه للقاء عدوه .

ومنذ ساعات الصباح الأولى جاء الروم يزحفون وهم على تعبئة دينية رفعوا صلبانم يدفون دفيفا وكان لهم صوت كالرعد ودخل ساحة المعركة ثلاثون ألفا كل عشرة الاف ربطوا أنفسهم بالسلاسل يقسمون القتال حتى الموت ، فخشي خالد بن الوليد من تأثير ذلك على معنويات المسلمين واتجه بفرسه إلى تلة النساء وقال لهن ، يا نساء المسلمين أيما رجل أقبل إليكن منهزماً فاقتلنه . فأخذت النساء الخناجر فهبطن نحو مؤخرة المسلمين . واتجه خالد نحو أبو عبيدة وقال له : " إن هؤلاء قد أقبلوا بعدد وجد وحد وزجل (أي التطريب بالصوت) ، وإن لهم لشدة لا يردها شيء ، وليست خيلي بالكثيرة ، ولا والله لا قامت خيلي لشدة خيلهم ورجالهم أبداً . ثم قال قد رأيت أن أفرق خيلي فأكون في إحدى الخيلين وقيس بن هبيرة بالأخرى ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميسرة، فإذا حملوا على الناس فإن ثبت المسلمون فالله ثبتهم وثبت أقدامهم ، وإن كانت الأخرى حملنا عليهم بخيولنا وهي جامة على ميمنتهم وميسرتهم وقد إنتهت شدة خيلهم وقوتها وتفرقت جماعتهم ونقضوا صفوفهم وصاروا نشرا، ثم نحمل عليهم وهم في ذلك الحال ، فأرجو عندها أن يظفرنا الله بهم ويجعل دائرة السوء عليهم وقد رأيت لك أن توقف سعيد بن زيد موقفك هذا (أي في مقدمة المعركة) وتقف أنت من ورائه في جماعة حسنة في مائتين أو ثلاثمائة فتكونوا ردءاً للمسلمين " . فقال أبو عبيدة افعل ماراك الله وأنا فاعل ما أردت.

وتقدم خالد بفرسانه ليصبح أمام معسكر قائد الروم الأكبر للمعركة باهان ، فخرجت أضعاف خيل خالد أمامه وخرج فارس من أعظم فرسان الروم قوة ومهارة وطلب من المسلمين المبارزة .

بحكم أن خالد بن الوليد قائد عسكرى محنك فقد كان مدركًا أهمية المبارزة الأولى ، ومدى وقعها النفسي على المعسكرين ، وعلم أن هذا الفارس هو من أكبر فرسانهم جرأة وقوة وثقة بنفسه وإلا لما برز قبل غيره ، فقال خالد : " أما لهذا رجل يخرج إليه ، ليخرجن إليه بعضكم أو لأخرجن إليه " . فخرج عدد من الفرسان فقال خالد لأحدهم : " أنت شيخ كبير وهذا الرومي شاب ولا أحب أن تخرج إليه .. فقف لنا رحمك الله في كتيبتك فإنك ما علمت حسن البلاء عظيم الغناء .

فخرج عمرو بن الطفيل فقال له خالد : " يا بن أخي أنت غلام حديث السن ، وأخاف ألا تقوى عليه " ، فخرج إليه فارس آخر فقال خالد : ما شئت ، ثم سأله هل بارزت رجل قط قبله ، قال : لا ، قال : فلا تخرج قال قيس بن هبيرة : " يا خالد كأنك علي تحوط " . قال له : " أجل فإني أرجو إن خرجت إليه أن تقتله فإن أنت لم تخرج إليه لأخرجن أنا " ، فقال قيس : " بل أنا أخرج إليه " ، فخرج نحو الفارس الرومي فضربه على هامته بالسيف فقطع ماعليه من سلاح (المغفر) وفلق هامته وسقط الرومي أمام فرسه قتيلا وكبر المسلمون .

وقد كان لفلق هامته أما نظر مئات الآلاف من جيوش الروم أثره النفسي على معنويات كل فرد فيهم .

فصاح خالد : ما بعد ماترون إلا الفتح ، احمل عليهم يا قيس ، ثم إلتفت إلى فرسانه فقال إحملوا عليهم فواله لا يفلحون وأولهم فارس متعفر بالتراب . فحملت خيل المسلمين على فرسان الروم حتى تراجعوا مذعورين ملتحقين بصفوف مشاتهم ، ويرى محمود شاكر أن اليوم الأول شهد مبارزات عديدة بين فرسان المسلمين وفرسان الروم منذ ساعات الصباح الأولى وكان عبدالرحمن بن أبي بكر نجم تلك المبارزة .

فتقدمت مشاة الروم كالجراد المنتشر أو كما قيل أيضاً : " مثل الليل والسيل " حتى كادوا أن يخالطوا ولكن الجند الرومي وقفوا هيبة وخوفاً من جند المسلمين حوالي الساعة .

فقال خالد : " قد رجعنا عنهم ولنا الظفر وعليهم الدبرة ، فاثبتوا لهم ساعة فإن أقدموا علينا قاتلناهم ، وإن رجعوا عنا كان لنا الظفر والفضل عليهم " .

وبعد ساعة هالهم صمود المسلمون وسكوتهم واستعدادهم إلا من ذكر الله والدعاء كل في نفسه ، فألقى الله الرعب في قلوبهم وبعد ساعة من المواجهة الصامتة دون قتال ، تراجع الروم نحو معسكرهم .

وكان قادة المسلمين يحثون فرقهم كل على حدة ، بالصبر والثبات وعد الفرار عند الزحف ومما قاله عمرو بن العاص : " أيها الناس غضوا أبصاركم واجثوا على الركب وأشرعوا الرماح والزموا مراكزكم ومصافكم ، فإذا حمل عليكم عدوكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا في وجوههم وثوب الأسد فوالذي يرضى الصدق ويثيب عليه ويمقت الكذب ويعاقب عليه ويجزي بالإحسان لقد بلغني أن المسلمين سيفتحونها كفراً كفراوقصراً قصرا، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم ، فإنكم لو صدقتموهم الشدة لقد إنذعروا إنذعار أولاد الحجل " .

وتتوالى الأحداث التي تزيد من رفع معنويات المسلمين وزعزعة ثقة الروم بأنفسهم ، فقد رأى باهان أن يواصل المفاوضات مع جيش المسلمين لأنه مع الكثرة فقد رأى بحادثة الصباح نذير خطر واجتمع مع قادته وقرروا إرسال واحدا من كبار قادة الجيش وأسمه جرجة لطلب استكمال المفاوضات لحقن الدماء .

وجاء جرجة قبيل غروب الشمس في يوم المعركة الأول ، وأبلغهم بطلب ماهان ، ولكن حضرت صلاة المغرب فقام المسلمون يصلون ، وبعد الصلاة قال خالد لجرجة : " هذا الليل غشينا ، ولكن إذا أصبحت غدوت إلى صاحبك إن شاء الله ، فارجع إليه فأعلمه ذلك " .

ولكن جرجة صعق بمنظر المسلمين وهم يصلون ومكث طويلاً ينظر بصلاتهم ودعائهم ، فقال عمرو بن العاص : إن رسولكم هذا الذي أرسل إليكم لمجنون ، فقال أبو عبيدة : كلا ، أو ما تفطن إلى نظره إلى المسلمين؟ والله إني لأرجو أن يكون الله قد قذف في قلبه الإيمان وحببه إليه وعرَّفه فضله . ثم جاء جرجة إلى أبو عبيدة فسأله عن الرسول ورأي الإسلام بعيسى وترجم له كلام أبو عبيدة ، فسأل عن أول أصحاب أبو عبيدة إسلاماً وسألهم إن كانوا يضمنون له الجنة إن أسلم وقاتل معهم قالوا نضمن لك إن أنت أسلمت ولم تغير حتى تموت ، قال : فإني أشهدكم أني من المسلمين .

وأشاروا عليه بالعودة وكتم إسلامه حتى يخرج من معسكرهم رسول المسلمين لكي لا يظن الروم أنهم حبسوا جرجة .فعاد وقد كتم إسلامه . حيث أعلن إسلامه في اليوم الثاني للمعركة وقاتل مع المسلمين حيث أستشهد في نهاية اليوم الثاني رحمه الله .

كانت معنويات المسلمين مرتفعة للنتائج الباهرة التي نتجت عن المبارزات في بداية المعركة إلى جانب رعب الروم من الإشتباك معهم ثم تراجعهم المخزي قبيل الغروب ، ولم تكن كل تلك النتائج على الأرض إلا لتعطي إيماناً بصدق الرؤى التي أعلنت قبيل المعركة ولرأي عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم .

في الوقت الذي بدأت ساعات صباح اليوم الثاني قام الروم باندفاع وهجوم قوي جداً على ميمنة جيش المسلمين أي على فرق عمرو بن العاص وتكررت هجماتهم ، كان أشدها على الإطلاق هو الهجوم الثالث الذي ربما أرادوا من خلاله دحر ميمنة المسلمين وقد تمكنوا من إحداث الخلل فيها وأجبر عمرو بن العاص على التراجع وكان أشد هجوم للروم قد وقع على على فرقة معاذ بن جبل وهم من الأزد ومذحج وحضرموت وحمير وخولان ورغم ثبات المسلمين وصبرهم إلا أنهم تكاثر عليهم الروم فزالوا عن مواقعهم ولكن بعد لحظات تراجع المسلمون نحو مواقعهم ، بيد أن الأزد تلقوا ضربات مؤلمة لم تتلقها فرقة أخرى من جيش المسلمين .

وكان أبو هريرة رضي الله عنه من رؤوس الأزد وكان يصيح " يا مبرور ... فتكاتفت عليه الأزد وهو يقول : تزينوا للحور العين وارغبوا إلى جوار ربكم عز وجل في جنات النعيم ، فما أنتم إلى ربكم في موطن من مواطن الخير أحب إليه منكم في هذا الموطن ، ألا وان للصابرين فضلهم" .

ثم اضطربوا الأزد والروم يقول عبد الأعلى بن سراقة : " فوالذي لا إله إلا هو لرأينا الروم وإنها لتدور بهم الأرض وهم في مجال واحد كما تدور الرحى – يعني يدورون على أنفسهم – فما برحوا ولا زالوا – الأزد – وركبهم من الروم مثل الجبال ، فما رأيت موطناً قط أكثر قحفاً– وهو أعلى الجمجمة – ساقطاً أو معصماً نادرا أو كفا طائحة من ذلك الموطن ...وقد أوحلناهم شراً وأوحلونا ...وكان جل القتال في الميمنة وإن القلب ليلقون مثل ما نلقى " .

وقد حصر الروم ميمنة المسلمين وأجبروها على التراجع نحو قلب جيش المسلمين حتى صارت القلب والميمنة شيئاً واحداً .

وكانت خطة الروم هو دحر المسلمين نحو الجنوب والاستفادة من انحدار الأرض وإجبار المسلمين على التوجه نحو المناطق التي يصعب بها حركتهم بسبب عمق الأودية قرب مصباتها في نهر اليرموك العميق نتيجة لهذا التراجع المستمر ثم حصر المسلمين بين معسكر الروم وبين نهر اليرموك ليسهل عليهم حصدهم هناك ، ولكن خيل المسلمين بقيادة خالد بن الوليد (الحرس المتحرك) دعموا فرق عمرو ، وأجبروا الروم على التراجع نحو ميمنتهم أي باتجاه وادي اليرموك نفسه أي أنهم وقعوا في المصيدة التي كانوا يهيئونها للمسلمين .

فركز الروم في هجومهم الر ابع على فرق يزيد بن أبي سفيان غير أن خالد بن الوليد عاد وانتقل إليهم بسرعة لدعم يزيد وصد هجومهم وفي حومة القتال ولهيب المعركة تمكن ضرار بن الأزور من قتل أكبر قادة الروم (ديرجان) وهو قائد قلب جيوش الروم ، وهو يعني أنه أهم قادتهم على الإطلاق بعد ماهان القائد العام لجيوش الروم بالمعركة وهو ثاني أكبر القادة الذي خسرهم الروم في اليومين الأولين من المعركة حيث أسلم جرجة وقاتل في اليوم الثاني مع المسلمين ضد قومه واستشهد في نفس اليوم لذا فقد كانت معنويات المسلمين مع نهاية العمليات العسكرية لليوم الثاني في أوجها ر غم الخسائر التي تعرضت لها فرق الميمنة .

وعلى العكس من ذلك كانت جيوش الروم التي فقدت خيمة كبار القادة غرفة عمليات المعركة إثنين من بين خمسة هم أكبر القادة في معسكر الروم . وهنا صاح خالد بن الوليد بعد أن قام بمجالدة المهاجمين على كثرتهم وإعادتهم نحو واقعهم الأولى ،وقال : " يا أهل الإسلام ، لم يبق عند القوم من الجلد والقتال والقوة إلا قد رأيتم ، فالشدة الشدة فو الذي نفسي بيده ليعطينكم الله الظفر عليهم الساعة ، إني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم " .

في اليوم الثالث ركز الروم على نفس الخطة واستهدفوا ميمنة المسلمين فرق عمرو بن العاص وتخلخلت الميمنة وظهرت بعض الثغرات في صفوف المسلمين ، وشدد الروم على الوصول إلى هدفهم في حصر المسلمين نحو وادي اليرموك غير أن فرسان خالد بن الوليد كانت جاهزة للتدخل في الوقت الأنسب فصد الروم وأجبرهم على التراجع إلى حيث مواقعهم .

في اليوم الرابع هجم السلاف (جند سلوفاكيا اليوم) على فرق عمرو بينما هجم الأرمن والعرب المتنصرة بقيادة جبلة بن الأيهم على فرق شرحبيل بن حسنة ، أما فرق عمرو فقد تراجعت ثم صمدت أمام السلاف وأوقفهم ، وقد ساعدت صرخات نساء المسلمين فرقة عمرو بالعودة نحو حومة القتال ولهيبه بعد أن أوصلهم الهجوم الرومي حتى خيام المعسكر فصاحت أخت عمرو بن العاص (أم حبيبة بنت العاص) : " قبح الله رجلاً يفر عن حليلته وقبح الله رجلاً يفر عن كريمته" ، وصاحت هند بنت عتبة : " عضدوا الغلفان بسيوفكم " .

وكان عكرمة بن أبي جهل يقول : قاتلت رسول الله في كل موطن وأفر منكم اليوم ؟! من يبايع على الموت ؟ فبايعه أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم منهم الحارث بن هشام وضرار بن الأزور واستبسلوا أمام فسطاط خالد بن الوليد الذي يبدو أن الروم كانوا قدر ركزوا إحدى هجماتهم مستهدفين خالد بن الوليد رضي اله عنه بشكل شخصي ، أما شرحبيل فقد تزلزلت فرق جيشه وتراجعت وكانت من كنانة وقيس .

بيد أن خالد دعمهم كما دعم قيس بن هبيرة الميسرة وبعد قتال شديد تمكن المسلمون من دحر الهجوم العام للروم وبدأوا يطورون زحفهم إلى هجوم عام على معسكر الروم وتراجع الروم وتقدم المسلمين ، وكان خالد وفرسانه يحصدون بالمتراجعين منهم حصداً حتى أن تلك الجولة من القتال قدر من أفناهم فرسان خالد بين ستة ألاف وعشرة ألاف ، وتراجع الباقون في حالة من الفوضى غير أنهم فوجئوا بقدرة النبالة الروم على إصابتهم إصابات دقيقة وفقئت أعين كثير من جند المسلمين بالنبل ،

وتراجعت فرق يزيد أمام هذا الأمر الجلل ، غير أن عكرمة بن أبي جهل ثبت بجانب يزيد ، ولكن الصدمة التي أحدثتها دقة إصابات نبالة الروم على معسكر المسلمين جعل الروم يطورون هجوما جديدا أدى إلى تراجع خطير لجيوش المسلمين ، حتى نهاية العمليات العسكرية في ذلك اليوم .

في اليوم الخامس من المعركة خرج ثالث أكبر القادة الروم واسمه غريغوري قائد ميمنة الروم وطلب من المسلمين المبارزة ، فخرج له أبو عبيدة رضي الله عنه وتمكن من قتله مع بداية عمليات ذلك اليوم ليخسر الروم مع صباح ذلك اليوم ثلاثة من أكبر قادتهم ولم يتبق إلا اثنين فقط وهو ما يعني تدمير معنويات جند الروم وارتفاع معنويات المسلمين رغم جراحهم وقسوة أحداث المعركة وأهوالها .

وهنا قام خالد بن الوليد بأهم قراراته الحربية على الإطلاق إذ ركز هجوم المسلمين على ميسرة الروم بهجوم قوي واسع ودعم الهجوم بمساندة قوة الفرسان التي يقودها بنفسه ، مستفيداً من تحييد قوة الفرسان الروم بشكل نهائي من المعركة ، مستخدما الأهداف ذاتها التي سعى إليها الروم في الأيام الفائتة ، وتمكن من حصر وحشر ميسرة الروم نحو ميمنتهم باتجاه وادي اليرموك ، كما لاحق خيول الروم التي فرت أمامه مولية الأدبار نحو المنطقة الوعرة في الشمال الغربي فتأذت حوافرها وقوائمها ولم تصبح قادرة على مواصلة القتال .

ويرى البعض أن هذا الهجوم الرومي في اليوم الخامس قد شمل الفرسان الروم مع مشاتهم وان فرسان الروم قد شقوا معسكر المسلمين أو إلتفوا حوله وحين كسر هجوم الروم وفشل مشاتهم عن تحقيق أهدافهم وتراجعوا بذعر وجدت فرسان الروم أن خيولهم قد تضررت وأنها غير قادرة على مواصلة القتال فضلاً عن شق صفوف المسلمين عائدين نحو معسكر الروم فأطلقوا الأعنة لخيولهم عبر الصحراء منهزمين تاركين المشاة لمصيرهم ، وبهذا فقد أخرج خالد بن الوليد القوة الرئيسية الضاربة في جيش الروم خارج المعركة

وقد كان بقدرته مواجهتهم ولكنه حين رأى أنهم متجهين نحو الصحراء خارج المعركة منهزمين فتح لهم الطريق – حسب رواية الطبري – ولم يقاتلهم معتبراً أن هروبهم عامل حسم للمعركة،

وفيما يبدو أن هذا الحدث كما يرى البعض قد وقع قبيل نهاية اليوم الرابع بينما يرى البعض أنه وقع في صباح اليوم الخامس ولعل قرار قائد فرسان الروم الإنهزامي هو الذي قرر مصير المعركة وسمح للجيش الإسلامي من حسم المعركة.

اشتد بعدها هجوم المسلمين وتمكنوا من دفع السلاف نحو الجنوب الغربي ، حيث جعل مثل هذا التراجع كارثة حقيقية للجيش الرومي قاطبة ، إذ أصبح الروم يتراجعون نحو الوادي وبدأ المسلمين فوقهم يسوقونهم نحو التقاء وادي اليرموك بنهر اليرموك فحصروا هناك حصارا لا مخرج لهم منه ، في ذلت الوقت أرسل خالد بن الوليد رضي الله عنه فرقة من الخيل قوامها خمسمائة فارس بقيادة ضرار بن الأزور نحو وادي العلان

وأمره أن يقترب من وادي الرقاد ثم يسير خلف جيوش الروم ويرابط عند مخاضة (كفر ألما) التي تكون عند التقاء الوادي مع أحد روافده وأن يعمل على منع الروم الفارين منها ، ويعمل خالد بن الوليد في كل الاتجاهات فيرسل مجموعة من الفرسان لتخريب حوض مياه الشربالذي بني عند (عين دكر) كي تزيد المياه المتدفقة من الحوض من زيادة منسوب المياه عند المخاضة (كفر ألما) فتساعد على إعاقة سرعة فرار الروم بسبب المياه والأوحال في تلك المخاضة .

اشتد الهجوم الإسلامي ضراوة وأمر أبو عبيدة المسلمين بالشد على الروم مهاجمين جيش الروم من الأجناب مما ألقى الرعب في قلوبهم فشدوا وكبروا وصكوهم صكة واحدة طعناً بالرماح وضرباً بالسيوف حتى ولوا ظهورهموأكتافهم)) فصاح أبو سفيان رضي الله عنه : " يا نصر الله اقترب الثبات الثبات يا معشر المسلمين " .

وبدأ التراجع لجيش الروم بشكل متزاحم في تلك المنطقة التي حصروا بها والتي لم تعد تكفي لتلك الأعداد التي تراجعت إليها ، " وأقبل خالد بن الوليد والمسلمون عليهم ففضوهم فكأنما هدم بهم حائط ، وتراجعوا فاقتحموا في خندقهم فاقتحمه عليهم ودفعهم إلى الواقوصة ...حتى هوى فيها المقترنون بالسلاسل ... فمن صبر من المقترنين للقتال هوى به من طارت نفسه من الخوف فيهوي الواحد بالعشرة "

وأصبحوا على شفا وادي اليرموك السحيق ووادي الرقاد العميق وهو ما لا يمكن عبوره ولكن التزاحم والقتل جعل الكثيرين من جنود الروم يلقون بأنفسهم أو ربما يدفعون قسراً بفعل التزاحم نحو السقوط بهذه الأودية فيجدون الموت بهذا السقوط ، وكانت أشد الخسائر البشرية لجيوش الروم سببها ربط عشرات الجنود بالسلاسل ، فكل عشرة مربوطين مع بعضهم البعض لكي يمنعوهم ربما من الفرار من المعركة ، ولكن إذا ألقى أحدهم بنفسه أو سقط مرغماً سحب معه بقية المربوطين معه بالسلسلة ذاتها ، وعرفت تلك المنطقة بـ (هوة الواقوصة) ففرت الخيل مع المخاضة فما إن يخرج الفارس الرومي منها حتى يجد ضرار بن الأزور وفرقته بانتظارهم فحصدوهم حصداً .

وهكذا في الثلث الأخير من اليوم الخامس للمعركة كان جيش الروم يتم استئصال شأفته فبين قتيل أو غريق أو جريح أو فار من المعركة ، وتهافت بالواقوصة حوالي **120000** مائة وعشرون ألف من الروم منهم **80،000** مقترن بالسلاسل و **40،000** مطلق غير من قتل بالمعركة من الرجال ، لقد كلنت نصيحة هرقليوس لقائد جيشه باختيار أرض المعركة بمثل هذه الأرض مهلكة لكامل جيشه ما عدا الفرسان الذين تفرقوا بالبلاد : انزلوا بالروم منزلاً واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب . وهو ما توقعه عمرو بن العاص حين رأى الروم محصورين بين الأودية وبين جيش المسلمين " أبشروا فقد حصرت الروم وقلما جاء محصور بخير " .

أظلم الليل والقتال مستعر ، ونام المسلمين وهم لم يعلموا أن جيش عدوهم قد تم استئصاله على أيديهم ليلة البارحة وحين أصبحوا لم يجدوا عدواً فخشي المسلمين أن عدوهم قد أعد لهم كميناً فجالت خيل المسلمين وسألوا الرعاة بالمنطقة فأبلغوهم أن الأكثرية سقطوا بالواقوصة عدا أربعين ألف غادروا المنطقة ليلاً نحو شمال سوريا .

ولحق بهم خالد بخيل المسلمين وأعاد المواثيق مع دمشق وحمص ومكث ينتظر أوامر أبو عبيدة رضي الله عنهم الذي أبلغ عمر رضي الله عنه بالفتح وبمطاردة الروم وطردهم من أقاصي الشام : " ثم إني أتبعتهم بالمسلمين حتى بلغت أقاصي الشام ، وقد بعثت إلى أهل الشام عمالي " ثم أبلغ امير المؤمنين بأن الهدف التالي للفتح هو القدس .

أما هرقليوس فقد كان بأنطاكية فقد أمر بقتل القادة المنهزمين الذين كانوا قد عارضوه بالصلح مع المسلمين وقال قولته المشهورة : " وداعاً سوريا وداعا لا لقاء بعده " .

لقد كانت معركة اليرموك من المعارك الفاصلة بالتاريخ والتي يمتد آثارها على الشعوب والديانات لآلاف السنين ، لقد إنقطعت آمال بيزنطة نهائيا من استرجاع بلاد الشام وظلت راية الإسلام ترفرف منذ ذلك التاريخ على كل أصقاعه ، وتمكن العرب بقيادة أبو عبيدة ليس فقط من استعادة البلدان التي احتلتها جيوش هرقل فحسب ، بل لقد كان إعادة احتلالها بدون مشقة ، وهكذا سهل تحديد المسلمين لحدودهم مع بيزنطة على حدود آسيا الصغرى مع الشام عند جبال طوروس ، والإلتفات نجو فلسطين ومصر وأفريقية ، لقد كانت معركة اليرموك أكثر من مجرد معركة كبرى ،

لقد تجلت فيها صراع الديانات والحضارات فكراً وديناً وحتى نواحي الفنون والخطط العسكرية لجندى وفارس وقائد مثل خالد بن الوليد و لحضارتين قدر لهما أن يشغلا التاريخ صراخاً وقعقعة للسلاح منذ معركة مؤتة ومرورا باليرموك وحتى حروب بوش الأخيرة في بلاد المسلمين .

وفاة خالد :

استقر خالد في حمص –من بلاد الشام– فلما جاءه الموت، وشعر بدنو أجله، قال: (لقد شهدت مائة معركة أو زهاءها، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم، أو طعنة برمح، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير، ألا فلا نامت أعين الجبناء)... وكانت وفاته سنة إحدى وعشرين من الهجرة النبوية... مات من قال عنه الصحابة: (الرجل الذي لا ينام، ولا يترك أحدا ينام)... وأوصى بتركته لعمر بن الخطاب والتي كانت مكونة من فرسه وسلاحه...

وودعته أمه قائلة:

أنت خير من ألف ألف من القوم إذا ما كبت وجوه الرجال أشجاعٌ؟.. فأنت أشجع من ليثٍ غضنفر يذود عن أشبال أجوادٌ؟.. فأنت أجود من سيل غامرٍ يسيـل بين الجبـال

مراجع:

القرآن الكريم

تفسير القرآن العظيم _ لابن كثير

البداية والنهاية- لابن كثير ج**6** ص**355** وما بعدها .

سيرة رسول الله -لابن إسحاق .

الرحيق المختوم .

صفوة التفاسير _ محمد علي الصابوني .

حروب دولة الرسول- سيد القمني .

سيرة النبي العربي _ أحمد التاجي .

علي هامش السيرة _ د. طه حسين .

التاريخ الإسلامي ص 223- د . ليلى مهدى .

أُسس قتال المرتدين : كتاب الصديق إلى الناس كافة .

مقالة لمازن التويجري – جريدة الحياة .

http://www.alminbar.net

http://www.islamonline.com

http://wwwelgesr.net

فهرس

مقدمة 1

خالد بن الوليد 4

نشأة خالد بن الوليد رضي الله عنه 7

الوليد بن المغيرة 9

نسـب خـالـد 19

خالد ودوره فى غزوة أحد 26

غزوة الخندق 45

معاداة خالد بن الوليد للإسلام والمسلمين 55

قصة إسلامه 56

غزوة مؤتة عام 8 هجرياً 59

فتح مكة 8 هجرياً 69

غزوة حنين 101

غزوة دومة الجندل 112

عام الأحزان 115

حروب الردة 117

خالد بن الوليد وطليحة الدجال.. 124
خالد بن الوليد ومسيلمة الكذاب 126
معركة اليمامة 128
معركة اليرموك ..بين سياسة خالد بن الوليد وبطولاته.. 134
وفاة خالد : 211
مراجع: 212
فهرس.. 213